# أعجب هروب إلى سقف العالم

فى الأمثال الشعبية الحكيمة مجهولة المصدر: «اللى يعيش ياما يشوف، واللى يمشى يشوف أكثر».

لاشك فى أن أول من قال ذلك.. كان إنسانا حصيفا خبيرا، عاش طويلا، ومشى كثيرا، حتى ولم يكن شاعرا، أو فنانا أديبًا يزهو بلقب أو شهرة، فصارت كلمته هذه مَثَلا تتوارثه الأجيال، يصلح موعظة فى كل زمان ومكان.

وهذا ما حدث مع «جان ـ مارى لوترل» الفرنسى ذى الوجه الذى لفحته الشمس وخضَّبه الجليد، من طول ما مشى سنوات وسنوات، يحمل بندقيته ذات المنظار المقرِّب، يرتدى حذاءه السميك (البوت) المبطن بالفراء شتاء، المثقوب للتهوية صيفا، متنقلا ـ بشجاعة، وجراءة، وصبر ـ بين مناطق مجهولة نائية، ولكنها جزء من أرضنا وعالمنا الملىء بالغرائب والطرائف والأعاجيب التى لا تحتاج إلى خيال مؤلف، أو شطحات مختال. وقديما قال الحكماء: الحقيقة أحيانا أغرب من الخيال!.

كان جان ـ مارى لوترل مخرجا سينمائيا فى باريس، ثم فى هوليوود، ثم قرر ـ رغم نجاحه فى عمله ـ أن يتوقف ويكف.. أن يغيِّر مجرى حياته، ونظام معيشته.. فاشترى طاقم سلاح للصيد، واتجه نحو ما يعرف «بالشمال العظيم» قرب المناطق الباردة شمال مقاطعة كيبك بكندا، عاش سنوات فى حرية وانطلاق.. حياة متجول حقيقى بين الغابات، وصائد للفراء، بصحبة أصدقائه من قبائل الهنود (الحمر)، وهم السكان الأصليون لكندا، والولايات المتحدة الأمريكية.

ثم أصدر كتابا طريفا شيقا بعنوان "Wallou"، اخترنا منه هذا الفصل، الذى يجمع بين المغامرة، والمفاجأة، وسحر «الشمال العظيم».. وفيه المعنى أو الدرس الأخلاقى الحضارى فى الختام.

اقتربنا أخيرا من قمة جبل صخرى مرتفع، هرمية الشكل، وإذا بنا نفاجأ بمنظر غريب، مألوف تماما فى مناطق «الشمال العظيم»، ينتصب فى مواجهتنا كسور فى القمة الجبلية يقطع علينا الطريق، وهى بعمق نحو خمسين مترا، والعرض ضعف ذلك، وحائط ضخم من المياه المتدفقة سقوطا فى هذا المهوَى السحيق.

لا مفر إذنْ من الالتفاف حول هذا المشهد المخيف بالتسلق الحذر فوق الصخور، كما تفعل الماعز فى صعود مرتفع. بعد حوالى نصف ساعة من هذه المغامرة الطائشة، سمعت نداء صديقى الهندى «روكى» الذى سبقنى بمسافة بعيدة. صاح فى دهشة:

ـ انظر!.... انظر!

رأيته يشير بأصبعه نحو السماء. رفعت رأسى، فرأيت عجبا: فوق صخرة منحدرة يجثم كوخ كبير من الخشب المستدير يقف وحيدا فى هذا العلو الشاهق فى صمت مطبق. بدا سقفه مختفيا تحت أكداس من فروع الأشجار، يواريه ساتر من خشب الحور (من أشجار كبيرة من نوع الصفصاف). صاح صديقى:

ـ البيت ! هناك ! ها هو يا جونى.. هناك!؛ فصرخت بدورى:

ـ ماذا دهاك! وما معنى هناك.. هناك! ماذا تريد أن تقول؟ وهل تعرف شيئا؟ أنت ما جئت إلى هنا إلا الآن؟!.

لم يجب. اقتربت من «روكى» الذى تحول من الدهشة إلى تمثال صلد. إما أنه بيت أو كوخ، فهو حقا يبدو كذلك! لكن المدهش أن يكون فى هذا المكان!. لماذا أقيم فى هذا المرتفع الشاهق؟ لا شعوريا راودتنى الإجابة... لكن

الصمت الرهيب الذى يغلف الموقع، فوق تلك القمة العالية التى يقع عندها الكوخ صدمنى بنوع من التحدى.

أمضينا أكثر من نصف ساعة لكى نقترب منه. وصلنا إليه أخيرا عبر ممر ضيق غير ممهد، ملىء بالأحجار والصخور المتراكمة، خاصة فى مسافة الأمتار المؤدية إليه. حقا، إن مجرد النظر إليه من أسفل يوحى بأنه كوخ بسيط بلا شك، لكنه يبدو غير ذلك تماما عند مواجهته. أول ما يثير الانتباه.. ضخامته، واتساعه بالنسبة لهذا النوع من الأبنية. شىء غير عادى تلك العوارض الخشبية (الدعامات)، وكتل جذوع الأشجار التى تصنع الهيكل، وتبدو عليها بوضوح شدة المتانة والصلابة غير المعهودة. طوله نحو أربعة عشر، أو خمسة عشر مترا، وعرضه بين سبعة وثمانية أمتار، وارتفاعه يربو على خمسة أمتار، تحيط به ـ بكثافة ـ أشجار الصنوبر الضخمة، التى تمتد فروعها فوق سقفه المائل بشدة، فتظلله، وكأنها تحمى وتخفى هذا الكنز الغريب بأغصانها الطويلة الممتدة.

لما كان المسكن جزءا من موقع متوار خلف غابة صنوبريات تنبسط من تحته، فهو محجوب تماما عن الأنظار، فكان المنظر الذى شاهدناه عن قرب بين القمم الجبلية المجاورة الفسيحة مثيرا للدهشة. إنه «عش النسر» حقا!.

اقتربْت، وطرقْت ـ بشدة ـ ما يشبه البوابة. لا إجابة!. مضت فترة من الصمت.. فبدأنا ندور حول البناء.

الانطباع الأول أنه فى غاية المتانة، تحيط به حوائط وحفر قصيرة سميكة، مليئة بالتراب، والصخور الملتصق بها نباتات كثيفة، يعجب المتأمل لها من فكرة إقامتها لتحميه من قسوة البرد، وتعزل عنه الصقيع، فضلا عن حمايته من الحرارة الشديدة.

كنا فى منتصف أكتوبر، والشمس فى تلك الأيام الأخيرة التى تعقب الصيف الهندى تهيئ لظهور بشائر الثلوج. وهكذا.. فإن الماء المتساقط نقطة

بنقطة من السقف المائل ينزلق بعيدا عن الكوخ بنحو متر، يسيل بهدوء خلف الحفر ويحفظها من البَلل والرطوبة.

بعد أن أنهينا دورتنا، وقد غمرتنا الدهشة الدافعة إلى حب الاستطلاع، وجدنا أنفسنا من جديد أمام ما يُحتمل أنها بوابة، تحجبها النباتات النامية المتشابكة، خاصة الصفصاف. استخدمنا «البلطة» فى إزالة الأدغال الملتفَّة، فَظَهرت من ورائها ممرات طويلة عريضة تكثر بها أشجار الأَرز، ثم لاح لنا باب ضخم مهيب.

دفعنا الباب بقوة، فانفتح دائرا ببطء على محوره، مُحْدِثًا صريرا يفصح عن مفصلاته الحديدية الصدئة، وأخشابه العتيقة النخرة. فارتعد جسمى كله، وأحسست وكأن رأسى تسقط فى هاوية بلا قرار. ثم، ويا للهول! توقف الباب فجأة عن الحركة. يا له من استقبال سيئ!. داخل رأسى سمعت طنين أجراس مختلطة مضطربة. ومن حولى كأن الظلمات المرعبة تتكاثف، فلا يصدر عنها سوى السكون الرهيب. مضت لحظة، وكأنها دهر. سمعت أخيرا صوتا يصرخ مناديا باسمى!. إنه قادم من أعلى !. وإذ كنت على حافة فقدان الوعى، فقد بذلت جهدا كبيرا لكى أرفع رأسى نحو الاتجاه القادم منه هذا العويل. . . ولكن من العجب أننى ما كدت أفتح عينى، حتى شعرت برموشهما متثاقلة، وكأنها التصقت بمادة صمغية لزجة. . مسحتهما بكف يدى، فازداد الأمر سوءا. كانت يدى ملطخة بما يشبه الزيت.

ثم علا الصراخ:

ـ وماذا بعد؟. . أجبنى. . ماذا بك يا جونى؟. . هل تسمعنى؟

ـ نعم. . أسمعك. . ! أين أنا؟. . أخبرنى أيها العجوز. . يا إلهى. . . . أنا لا أعرف شيئا. . !. . أف لك!. . ألا تريد أن تفهمنى؟!. .

وفجأة يسقط ضوء شديد على كتفى، ثم سمعت روكى، وكأننى فى حلم. إنه يضحك عاليًا فى قهقهة صاخبة.

ـ مسكين يا جونى!.

ـ ماذا دهاك؟!.. ماذا حدث؟.. تكلم يا رجل!.

ـ إنك غارق لأذنيك! أنت مدهون بالزبد يا صديقى الوسيم!.

نعم مدهون بالزبد، ووجهك ممتلئ به!.

ـ يالك من أحمق!.. وجهى ممتلئ بماذا أيها الأحمق؟!.

ـ أكيد من خيوط العنكبوت!.... لقد سقطت فى قبو يا مسكين!.

ألقى الهندى نحوى مصباحه الكهربائى (البطارية) قائلا:

ـ خذ، وانظر إلى نفسك!.

سقط المصباح إلى جوارى. التقطته، وأخذت أنظر حولى!. إن ما رأيته يستحيل من قبل توقعه. داخلنى إحساس بأننى فى كوخ صياد أسماك، ملىء بكل أنواع الشباك. وفى نفس الوقت، لاحظت أن سقوطى انتهى ـ لحسن حظى ـ فوق كومة من الأغطية.. ومن حولى تتدلى ـ بكثرة ـ خيوط العنكبوت، مصطبغة بلون قاتم، فتصنع ساترا معتما لزجا.

فجأة ـ وكأننى فى كابوس مزعج ـ لاح لى وجه روكى. اقترب نحوى يدفع عن نفسه خيوط العنكبوت المتراكمة.

ـ قل لى إذنْ.. كيف سلكت طريقك لكى تصل إلى هنا؟ هل تعرف..؟

ـ عن طريق السلم!.

ـ آه... أما أنا، فقد تحاشيت السلم!، فوقعت أنت فى الفخ الذى تركوه مكشوفا للمغفلين أمثالك، المستعجلين دائما!.

إن القبو واسع بشكل ملفت للنظر. خمسة أو ستة أمتار من كل جهة، وبارتفاع ستة أو سبعة أمتار!. لاشك فى أن روكى رجل حصيف.. فقد اختبر المكان بسرعة منذ البداية جيدا؛ فأوضح لى كيف أن الحوائط مقواة ومدعمة

جيدا، والقبو أيضا محكم تماما. . ليس به أى تهدم أو انبعاج، والأرضية مسواة بعناية شديدة، ليس بها أية نتوءات، رغم أنها من الطين المحروق.

فى أحد الأركان، أسفل حائط، وتحت طبقة من التراب الأصفر اللون، اكتشفنا قطعة من نسيج أجولة كتانية وأدوات متنوعة: مطارق، قصعات، بكرات، مقاييس من الحبال، مساحج (مسطرين يستخدم فى البناء)، أربطة، طسوت، معاول. . . ثم صعدت عن طريق مرقاة مدرجة، متابعا روكى خطوة بخطوة، الذى أسرع متجها نحو الدور الأرضى. . فلما بلغناه، ظللتُ فى قلق واضطراب لبضع لحظات، ثم انتبهت؛ فلم أجد روكى، وكأنه تلاشى!.

ـ روكى. . . .؟

ـ ماذا. . . .؟.

ـ أين أنت؟.

ـ هنا. تعال هنا أيها السهيان!. . .

تسلل شعاع من الضوء مخترقا الظلام، ثم آخر، ثم مجموعة أخرى من الأشعة المتقاطعة، تجمعت متشابكة أمامى، بينما كنت أخطو متحسسا طريقا نحو صديقى. فى داخلى يغمرنى شعور بأننى سأجد نفسى فجأة داخل برج قلعة، حيث قد هَبَّ الشهداء متحررين بعد سنوات من رقادهم فى الظلام، وتلك الشرارات من الأشعة ما هى إلا أثر وضاء من عبورهم.

فتح روكى النوافذ. . إنها ضيقة للغاية، لدرجة أنها تشبه - حقيقةً - فتحات إطلاق الرماح أو الرصاص من أسوار القلاع، وكل واحدة منها مسدودة بأكياس مغبرَّة من الجلد، مملوءة بالرمل والحصى، وأطرافها (للنوافذ) العليا محكمة الإغلاق بسيور (أحزمة) من الجلد، تتدلى من الداخل. ويكفى للسماح بدخول الهواء، أو ضوء النهار، أن تُشَد تلك السيور، فتنزلق الأكياس بعيدا. . أفلح رفيقى الهندى فى فك وثاق الكثير من تلك الأكياس. كل حائط يحتوى على أربع نوافذ، عدا الحائط الذى فى الواجهة، فإنه يحتوى على ست. وعندما رُفعتْ السواتر عنها، أحسسنا ـ لوفرة الضوء ـ أن كشافات إنارة ساطعة غمرتنا.

على غير اتفاق، شرعنا على الفور فى استكشاف المكان. فى ركن منزو من القاعة الفسيحة ـ محصور بين ستة أعمدة كبيرة وقوية، ترتفع الأرضية إلى السقف ـ رأينا عددا من قطع الفراء الأصلية معلقة على ارتفاع يغطى نصف الحائط العلوى. إنها متلاصقة، وكل قطعة مربوطة الجوانب بالتى تجاورها فى مساحة واسعة، وتحتها خلف الأعمدة مرتفع يعلو إلى نصف الحائط السفلى، مغطى بقطع فراء أصلية أخرى ملتصقة الحواف بشرائط جلدية، تكون مفرشا طوله نحو أربعة أمتار، وعرضه نحو ثلاثة، فهو إذنْ سرير مفرط الاتساع، ترقد فوقه - بلا نظام - كومة من قطع الفراء المتراكمة. إنها كتلة من فراء الدببة، والأيائل، والحائطان الآخران على جانبى المخدع تغطيهما ـ ابتداء من المنتصف إلى السقف ـ قطع كبيرة من جلود الدببة السوداء والبيضاء، وفراء ذئاب، أجزاء منها ممزقة ويابسة. وبعيدا بعض الشىء.. كتل من جذوع الأشجار المتجاورة، لابد أنها بمثابة حاجز.

على ضوء بطاريتى اكتشفت فرن طهى من الأخشاب. وبدافع احترام المكان، مسحت برفق التراب من فوق سطحه. لمحت بابه ملقى على الأرض، ويرقد بجواره عدد كبير من أجزاء مواسير (أنابيب).

كم يا ترى عدد السنين التى مضت منذ أن تخطى آخر إنسان بقدميه عتبة هذا المسكن؟. من العسير الإجابة عن ذلك!. ربما خمسون سنة.. على الأقل!. وكيف تسنى لأحد ـ أو جماعة ـ فى ذلك العصر بناء «عش الصقر» هذا الذى لايصدق، بدعاماته الضخمة المهيبة، وكتل وجذوع أشجار الأرز السميكة، التى ما زالت تتحدى الزمن، وهى جاثمة فوق هذا المنحدر الصخرى بأعلى قمة الجبل؟!.

لابد أننى كنت ـ لدهشتى البالغة ـ أحدث نفسى بصوت عال، لأن «روكى» صاح بى من أعلى الكوخ بأنه شخصيا يقدر أنه بُنى فى القرن الماضى. ثم أردت تفسيرا؛ فقال إنه يقصد بذلك مائة سنة، وبجهد رجل واحد.

ـ ماذا؟.. رجل واحد؟!.. إنك تسخر بلا شك، أو تهذى!.

ـ ولو !.. إننى جاد تماما ! إنه رجل واحد.. وبالتأكيد!.

ضغط «روكى» على كلماته، تعبيرا عن اعتقاده الواثق. إذن فهو جاد لا يمزح. ثم أضاف: لابد أن هذا الرجل كان ضخما، عملاقا. ولكى يثبت لى صحة استنتاجه وإقناعى، لفت نظرى إلى ارتفاع الباب، وأيضا إلى فتحات «النوافذ»، أو بالأحرى المنافذ. من بين الثمانية عشرة ـ وهو مجموعها ـ سبع فقط متوسطة الارتفاع، والإحدى عشرة الأخرى على ارتفاع نحو مترين من سطح الأرضية.. فما إذن عَمَلُ تلك النوافذ أو الفتحات من ارتفاع مترين، ما لم تكن للرؤية؟.

ـ ـ إذن، فهذا الرجل كان ضخما بالتأكيد!.

ـ موافق!.. موافق!.

أدهشنى الباب حقا، وجعلنى فى حيرة.. فارتفاعه لا يقل عن مرتين ونصف، ولكن لماذا هو شديد الضيق بشكل غير عادى؟

أدرك صديقى الهندى حيرتى؛ فقال:

ـ إنه مرتفع، حتى يتمكن ذاك الرجل من عبوره بلا انحناء، إذا كان يضع أحمالا فوق رأسه، مثل جوال كبير، أو نصف ذبيحة.. أما إنه ضيق، فهذا تعرفه بالخبرة يا جونى!.. فمن أجل الحيطة والحذر!.

وبينما كان روكى يواصل بحثه واستكشافه، عدتُ تلقائيا إلى الركن الذى به الفرن. إننى فى حاجة إلى التأمل والتفكير. ومن ناحية أخرى.. فإن الركن بالذات يبدو لى أكثر حيوية من غيره. نعم «حيوية» بمعنى الكلمة، وإنه لكذلك. ما إن بدأت أشغل ذهنى بهذه الفكرة، حتى انْفلت فأر بسرعة من بين ساقى! فرفعت صوتى:

ـ مرحبا بالضيف!.

طوال الوقت الذى كنت أناجى فيه نفسى، لم أكف عن طرح الأسئلة، وأهمها هذا «الرجل الكبير» كما يسميه روكى، هل كان له مخبأ؟. طرقتُ الأرضية لا شعوريا عدة مرات بكعب حذائى طرقات قوية، على أمل التقاط أية إشارة ضوئية ولو ضعيفة، أستشف منها شيئا.. ولكن عبثا. هل من الممكن أن يكون فى السقف؟.. لا، ففى ذلك مخاطرة كبيرة، بسبب الرطوبة والبلل.. فالسقف يمكن أن يتداعى، وتسرُّب الماء أمر محتمل. من الصعب التكهن، وهذا يحيرنى.. أين المخبأ؟.

مكثت فترة طويلة بجوار الفرن، أفكر فيما يجوز، وما لا يجوز. وقفت إلى جواره متأملاً لحظة. وفجأة راودتنى فكرة: لماذا لا أحرك جزءا منه قليلا؟. حاولت معايرته (معرفة قياساته وكتلته). عجبا!، إنه يبدو لى ثقيلا. أرجله متباعدة جدا. وقفت إزاءه متفحصا.

ارتكزت بصدرى فوق السطح العلوى للفرن، واضعا ذراعاى متقاطعين تحته، وقربت وجهى من الفتحة حتى خَدّاى بحافتها اللزجة. سحبت يدى، وأدخلتها فى الفتحة، وبأطراف أصابعى نزعت غطاء الموقد، ثم رفعته نحوى بشدة، فطاش ساقطا على فخذى، ثم انزلق تاركا جرحا فى ساقى. قفزت لا شعوريا إلى الخلف، لكن صوت سقوط الغطاء المعدنى على الأرض لفت نظرى إلى شىء.. وقفت متحيرا، بل متغيظا!.

أخذت أحك الأرضية ـ حيث سقط الغطاء ـ بحذائى البوت السميك؛ فانزاح التراب كاشفا عن لوح سميك من الحديد، باتساع يقرب من اتساع الفرن.

ارتكزت على ركبتى، وبكل قوتى ـ مستعينا بسكين كبير معى ـ أفلحت فى رفع هذا اللوح، فظهر لى على الفور ما يشبه الحاجز المتشابك، مكونا من أسياخ صلبة سميكة مبرومة مرصوصة بعناية، ومثبتة بدقة. أدركت لأول وهلة أنها دعامة قوية، يرتكز عليها اللوح أو الغطاء الحديدى، تزيد من إحكامه وصلابته.

الحذر واجب!...

فككت باحتراس واحدا من تلك الأسياخ بطرف السكين، لكنه ـ لمقاومته الشديدة ـ انبعج أثناء استخلاصه للخارج. زاد حب استطلاعى، فواصلت استخراج بقية الأسياخ.

أمامى الآن فتحة مستطيلة. انحنيت فوقها لأنظر، لعلى أرى شيئا، فهبَّت موجة من رائحة الرطوبة العطنة. واصلت مهمتى والسكين فى يدى، والمصباح الكاشف بجوارى. رأيت على مسافة قريبة حاجزا آخر مطابقا تماما للحاجز الأول، وفى نفس حجمه. شرعت فى فكه مثل الأول، وإذا بنصل السكين يدخل رأسيا بين كتلتين من جذوع الأشجار، وأحسست أنه انزلق حتى المقبض إلى فراغ. بحذر شديد زحزحت كتلتى الخشب، ثم نظرت متفحصا، فدهشت إذ تبينت ما يشبه القبر على عمق كبير، جدرانه من ألواح خشب الأرز الرقيقة، منتصبة رأسيا، ومغطاة بقطع كبيرة من الجلد المدبوغ.

من المؤكد أن «الرجل الكبير» يرقد هنا، مع الاعتراف بأنه أجاد صنع وترتيب كل هذه الأمور.

فى قاع الحفرة تراصت ـ فيما يشبه جنود الحراسة ـ أعداد كثيرة من المعلبات المحفوظة، من بينها صندوقان من الكرتون، مكتوب عليهما بوضوح: «٢٠ ـ خرطوشة ـ لى انفيلد ـ بريطانيا»، وأربعة صناديق أخرى من المعدن لم تفتح، كتب عليها: «رنجة البلطيق»، بجوارها وعاء من الصلب، مملوء إلى ثلاثة أرباعه بعملة ذهبية، معظمها إنجليزية. وفى جانب، ستة أجولة كبيرة من القماش السميك، متخمة حتى الفوهة، ومنتفخة حتى تكاد تنفجر، مربوطة بأحزمة متينة من الجلد، وكأنها معا وحدة، أو مجموعة واحدة متكاملة.

لم أستطع مقاومة الرغبة العارمة فى فتحها ـ أو جوال واحد منها على الأقل ـ لمجرد النظر... مددت يدى نحو أحدها بلا اختيار، وفككت رباطه، ثم فتحته برفق.. إنه ملىء بتراب الذهب (أو الذهب المسحوق). أيضا الذهب؟!.

لأول مرة فى حياتى أشعر بتلك النشوة اللذيذة! . دسست يداى فى داخل الجوال بسعادة لا حدود لها، ثم سحبتهما تلقائيا، وقبضتا كفَّاى مملوءتان. مازلت لا أصدق عيناى. وبينما انسال مسحوق الذهب من بين كفى كالماء، تاركا ذراته اللامعة البراقة فى ضوء المصباح على سطح يدى من الداخل والخارج، شعرت بقشعريرة تسرى كتيار الكهرباء من قمة رأسى إلى إخمص قدماى.

وماذا فى الخمسة أجولة الأخرى؟.. نفس المسحوق.. الأصفر... البراق!.

طوال هذا الوقت، كنت أسمع ـ لاهيا عنه ـ من بعيد صوت صديقى، يغمغم بكلمات مصاحبة لتحركاته القلقة داخل المسكن.

ـ أخيرا؟! ماذا تفعل؟ هل تصنع عَلَفا؟.

ـ مهمة كبيرة، هنا فى الداخل. مواد بالجملة.. مواد كثيرة.. ثرثر صديقى بكلمات لم أفهم معناها. أما أنا، فقد أخرجت من الحفرة كل العُلب، واحدة واحدة، والأوانى والأوعية المختلفة، إلى أن ظهرت لى ألواح رقيقة من الخشب وشرائح من الجلد فى القاع، فأدركت أن هذه نهايته «الخزانة» أو المخبأ. مَن كان يظن ذلك، أو يصور خياله أن يحدث ذلك؟. أضاء النور فوقى.

ـ جونى؟.

ـ نعم؟.

ـ تعال، وانظر!.

ـ ها أنا قادم!.

خرجت أتبعه. وقف شاخصا عند ما يشبه قبوا مستديرا عميقا وضيقا، لا يزيد عن ارتفاع رأسه، يملأه التراب والعنكبوت، وأكوام من أشياء غريبة: مناخل، حبال، معاول، شواكيش، مناشير، أغطية وقبعات قرمزية، جرادل منبعجة، بكرات دوارة، قصعات مملوءة بالمسامير، أحذية طويلة الرقبة (بوت)

مقواة بخيوط من الحديد الرفيع، بجوارها جوالان مكتوب عليهما أيضا بخط واضح وبحروف كبيرة باهتة: «ديناميت ـ خطر». قال روكى:

ـ هذا يشبه ما فى القبو الأول!. انظر!. نفس المواد تقريبا. فى رأيى أن «الرجل الكبير» لم يكن مجرد صياد وحسب!. من المحتمل أنه جاء إلى هنا بحثاً عن الذهب، ومن باب الحذر، أحضر المواد والأدوات مضاعفة.

ـ باحث منقب؟!.

ـ بالضبط.

شرح لى صديقى الهندى أنه فى ذاك الوقت البعيد، كان هنا فى الشمال الكندى عدد من هؤلاء المنقِّبين، وكثير من المناجم التى لم تُستغل مطلقا. وفى تقديره أنه ماتزال توجد ـ إلى الآن ـ كميات ضخمة من الذهب المطمور فى الأرض، لكن لأسباب كثيرة.. استخراجها صعب ومكلف. وأحد تلك الأسباب ـ بلا جدال ـ قسوة الطقس المفرطة.

كانت المرة الأولى التى أشاهد فيها أمام عينى معدات وأدوات باحث عن الذهب. أنا الذى قضيت شبابى فى قراءة القصص والروايات، وتعاملت فنيا مع خيالها عندما كبرت. أحسست بشعور مختلف. سألت روكى:

ـ ولكن أين كان يبحث هذا الرجل «العفريت» عن المعدن الثمين؟

بالتأكيد فى أسفل الجبل مع السيول...

ـ ليس بالضرورة!. لابد أن «الرجل الكبير» قد اكتشف عرق ذهب فوق الجبل على الجانب الآخر من البحيرة.. وهو وحده الذى كان يعرف موقعه. ومن المحتمل أنه كان لا يأتيه إلا فى كل ربيع، ولا يجىء مطلقا فى الخريف، حيث يأتى الهنود يطرقون المكان!.

صحبتُ روكى إلى الحفرة التى أخرجت منها العلب، وجلست على ركبتى عند حافتها. وأخذنا نركز الإضاءة بمصباحينا داخلها، ونختبر كل شبر فيها، ثم قلت متعجبا:

ـ حسنا!. هل ترى جيدا؟! هنا كان مخبأه الحصين.

ـ ولماذا لم تنبش القاع، وتعرف ما تحته؟.

ـ لماذا؟ لأن الأرض تحته!. إن ما تراه هناك فى القاع يا روكى هو الأرضية!.

لم يجب روكى، بل تركنى قليلا، ثم عاد ومعه جاروف، وقال:

ـ خذ . هيا.. سوف ترى جيدا ما يكون!.

ـ أُوكيه!.

نزلت ـ على غير اقتناع ـ ومعى الجاروف، وروكى يرقبنى بلهفة. بدأت فى نزع بعض ألواح الأرضية الخشبية، وفجأة انزلق الجاروف غائرا إلى نحو منتصفه، فكانت دهشتنا أن رأينا حفرة أخرى.

ـ معك حق يا صديقى. قل لى ماذا أفعل إذن؟!.

لم ينبس روكى بكلمة، وانحنى نحوى، مسلطا ضوء مصباحه فوق رأسى. فى هذه المرة ظهر فى القاع صندوق مستطيل الشكل من الحديد الأبيض، طول ضلعه نحو نصف متر. إنه مغلق بإحكام. ومن عجب أنه يشبه الصناديق التى كانت جداتنا تضع فيه أدوات الخياطة.

فى ذهول مطبق، رفعت رأسى إلى صديقى فى نظرات متسائلة..

كان جامدا بلا حراك. كانت الدهشة البالغة تبدو على وجهه. انحنيت لألتقط الصندوق. إنه ثقيل بعض الشىء. بحذر شديد جدا ـ دون أن أعرف ما بداخله ـ رفعته بتأثر بالغ، ليتسلمه روكى.

انقضى وقت طويل قبل أن نتمكن من نزع غطائه، استعانةً بنصل السكين، لالتحامه بالصدأ. أفلحنا أخيرا فى فتحه، وكانت المفاجأة المدهشة أننا وجدنا بداخله كتابا كبيرا، ملفوفا جيدا بجلد الماعز الناعم المدبوغ.

مسحت يدى بردائى لأنظفها مما علق بها من تراب، ثم نزعت اللفافة بمنتهى الحذر، وصرخت:

ـ ياه!.. انظر!. إنه إنجيل!.

فتحت الكتاب الثمين. حواف الصفحات مصفرة قليلا، وملتصقة بعض الشيء. أعلى الصفحة الأولى مكتوب هذا التاريخ: ١٨٦٠، وتحته مباشرة مسجل بخط اليد «سان بطرسبورج». إلى أسفل قليلا، فى وسط الصفحة، مكتوب بخط جميل جدا، وبأحرف كبيرة اسم: «إيفان كارازانوف».

ظلت المشاعر العنيفة العميقة التى غمرتنى فى تلك اللحظة وأنا قابع على ركبتى عند حافة المقبرة، وحيدا فى هذا الجو الغريب، والإنجيل العجيب فى يدى فى هذا المكان النائى شديد التطرف والارتفاع بأقصى الشمال الكندى. ظلت تلك المشاعر الانفعالية تلازمنى لسنوات طويلة فيما بعد.

لم أستطع أن أرفع نظرى لفترة غير قصيرة، وأنا مشدود بكل كيانى، سابحا بخيالى وأفكارى مع تلك الصفحة من الكتاب. ثم سألنى روكى، الذى احترم صمتى الطويل، ولكنه كان قلقا متحيرا:

ـ هلا قرأت لى ما هو مكتوب؟.

ـ نعم... نعم!.

قرأت المكتوب بصوت عال هذه المرة. وما إن فرغت من تلاوة المقطع الأول من اسم «كرازا...»، حتى هبَّت فى الخارج فجأة عاصفة مروعة، رغم أن الجو كان هادئا تماما حتى تلك اللحظة، وارتفع صوتها الهادر بدرجة لا تصدَّق، ولم نكن نتوقعها. وفى خلال ثوان معدودات، اهتز الكوخ، حتى خُيل إلينا أنه سينهار حتما فوقنا توًّا. إن المبنى المكون هيكله من جذوع أشجار الأرز المتينة يئن، ويصرّ (يحدث صوتا كالصفير الحزين) ويطقطق من كل أجزائه، كما لو أن كتل الجذوع الخشبية، والعوارض (الدعامات) على وشك أن تتداعى وتتفكك.

فزعت... وظللت جالسا على ركبتى بلا حراك. لم أستطع أن أرفع عينى لأنظر إلى روكى. بدأ زئير الريح يتضخم ويعلو ثانية بعد ثانية، إلى أن صار مكثفا بدرجة تكاد تصم الأذن، وكأنه صوت عويل مزمجر مرعب، قادم من أعماق القبر، أو من ليل الزمن، حيث أننا عبثنا بالمكان، وانتهكنا حُرمته.

مضت دقائق حسبت أنها لن تنتهى. ثم بدأت هذه السلسلة من الظواهر تخبو وتتلاشى فجأة مثلما بدأت، ثم تبعها داخل المسكن هدوء شامل كامل مخيف لا يطاق، أثار الفزع من جديد داخلنا وحولنا.

زادت ضربات قلبى، حتى كاد أن يتوقف، واستمرت رعشتى. نعم!. فى هذا اليوم ـ وليغفر لى الله ـ أقسم أننى سمعت صراخ الموتى!.

ظهر أمامى خيال روكى أعلى فتحة البوابة، وهو قادم من الخارج.

ـ أين كنت؟.

لم يجبنى، حتى انتهى واقفا إلى جوارى. وبنبرة واثقة، وبصوت لم أعهده فيه أبدا من قبل، قال:

ـ يبدو أننى سمعت وقع خطوات بالخارج!.

ـ خطوات أقدام؟!.

ـ نعم.. وقريبة جدا.. دُرت حول المكان.. لم أر شيئًا. ربما كانت الريح.. هذا كل ما فى الأمر!.

كان صوته محشرجا، وعلى وجهه مسحة التهيب، مثل الملاكم عندما يسمع صوت جرس بدء الجولة!. قلت مهدئا:

ـ هيا... كل هذا من وهم الخيال!، وربما من الإرهاق الشديد..

ـ لا. لا أظن ذلك يا جونى!.

ثم قال بصوت خافت، وكأنه يخشى أن يسمعه أحد:

- أنا متأكد يا جونى!، متأكد!.

إن وجهه الهادئ - عادة - بدأ يتقلص فى تشنج. ثبت عينيه المفزوعتين بشدة فى عينى لحظات، ثم قال بصوت جاد مرتعد:

- جونى.. إنها «روح» الرجل الكبير!.

آثرت ألا أجيب. اكتفيت بهز رأسى فى هدوء، ربما كان ما يظنه هو الصواب!.

قلبت بسرعة صفحات الإنجيل. فوجئت - مندهشا - بصورتين فوتوغرافيتين فى منتصف صفحاته: إحداهما لرجل طويل القامة جدا، ملامحه جميلة، له شارب، نظرته صافية نبيلة. إنه واقف بجوار نافذة تحيطها ستائر ثمينة بيضاء. يرتدى زى الاحتفالات الكبرى للضباط، ويده مرتكزة على مقبض سيف معلق فى جانبه. إن مظهره فخم، يدل على رتبة عالية.

الصورة الأخرى بيضاوية، كأنها منزوعة من ميدالية كبيرة الحجم. إنها تمثل - ويا للعجب - النصف العلوى لامرأة بارعة الجمال، ينسدل من فوق رأسها وشاح أبيض غاية فى الرقة والأناقة. إنها بلا جدال على درجة عالية من الحسن والنبل.

تأملت الصورتين بإعجاب شديد... إن وجه المرأة محاط بدائرة من قلم رصاص، كما لو أن أحداً أراد أن يُبرز جمالها البديع. همس صديقى الهندى فى أذنى قائلا: «رجل وسيم، وامرأة جميلة ملعونة»!.

تحت صورة المرأة اسم: «ساندرا»، والتاريخ: ١٨٩٠، وهو أيضا محاط بدائرة من قلم. أعطيت روكى صورة المرأة ليتأملها، واحتفظت بصورة الرجل أتفحصها بدقة. نعم، (شرائط الكتف) من الذهب أو الفضة، تنم عن مرتبة عالية جدا. تحت الصورة نفس الاسم المكتوب على غلاف الإنجيل: «إيفان كارازانوف - ١٨٨٥».

لكن مفاجأة أخرى كانت فى انتظارنا: هناك فى أقصى قاع الحفرة، وبطولها تقريبا، يوجد نموذج مركب ملفوف بعناية كبيرة داخل قماش سميك. إنه ثقيل جدًا، ولم أستطع إخراجه إلا بمساعدة روكى.

وضعنا النموذج فوق سطح الفرن، لكى نتأمله جيدا عن قرب. رائع مدهش حقا. أما عن روكى، فإنه وقف مبهورًا، مثل طفل يتلقى أول (دراجة) فى حياته يوم عيد ميلاده!.

يمثل النموذج سفينة حربية. طوله متر ونصف. الأبراج، والمدافع وحبال الربط، والجسور، والممرات، منحوتة بدقة، بل منقوشة نقشا بديعا بمهارة فائقة. على يمين السفينة وميسرتها منحوت هذه الكلمة «بوتمكين». لابد أن «الرجل الكبير» كان ضابطا على تلك السفينة الشهيرة فى التاريخ. لماذا إذن فر هاربا إلى الشمال الكندى العظيم؟!.

أمضينا فترة فى صمت تام، وكل منا غارق فى أفكاره، نتأمل ـ جالسين فوق جذع شجرة ـ «بوتمكين» الشهيرة المدهشة.

أمسكت بصورة المرأة، وأنا أقول لروكى:

ـ فى رأيى أن «الرجل الكبير» لم يأت إلى هنا وحده!. فماذا ترى؟.

ـ محتمل... محتمل!.

ـ اسمع منى.. ليس هذا «محتملا»، بل هو مؤكد!. لماذا هذا السرير الكبير جدا؟ المتسع جدا؟، ثم إنه ـ على أية حال ـ إذا أردت رأيى... - والمنطق يقول ذلك ـ لا يستطيع كائن بشرى أن يستمر فى البقاء هنا بمفرده لعشرات السنين فى مثل هذه الوحدة، وهذا الطقس الرهيب. ولأنه رجل أبيض، غير متقدم فى السن، صدقنى، فإن هذه السيدة «ساندرا» جاءت معه. ولهذا السبب وحده استطاعا معا أن يتحملا ويعيشا حياتهما.

ـ ربما... ولم لا؟. يجب أن يكون الحق معك!، لأنه هنا يجب أن توجد امرأة، وإلا يكون الوضع مستحيلا!.

- نعم، صدقنى. هنا كانت حياة شخصين، واستمرت بعد أن هربا معا من بلدهما البعيد روسيا. وأية حياة كانت يا روكى حينذاك هنا فى تلك المناطق الضائعة من المعمورة؟!. وإذا وضعنا أيضا فى الاعتبار المستوى الاجتماعى الرفيع الذى انحدر منه كل منهما... على أية حال، فإن كل ما تبقى لهذين الكائنين غير العاديين من ثروتهما القيمة، هو أنهما يرقدان منذ قرن من الزمان جنبا إلى جنب فى أعماق قبر مدفون تحت هذا الفرن، فوق قمة شاهقة، لا يكاد يدركها إنسان.

ثم سألته:

- كم من السنين - فى رأيك - استطاع هذا الرجل وتلك المرأة أن يعيشاها هنا؟.

أطلق الهندى زفرة عميقة، وهرش مؤخرة رأسه، وكأنه يفكر بشدة، ثم أطال النظر إلى الأرض، ونهض، وراح يختبر الحوائط ببطء، وقطع الصخور الداخلة فى البناء، وجزء السقف الذى يعلو الفرن، ثم قال: إن الرجل عاش هنا - على الأقل - ستين سنة.

- بهذا القدر؟!.

- بالتأكيد!..

- وصاحبته؟..

- أربعين سنة فقط.

إنها حياة فى غاية القسوة للمرأة البيضاء.. وحتى بالنسبة للهندية.

قفزتْ فى رأسى فكرة، أردت أن يشاركنى فيها. اقترحت ببساطة أن نُعيد وضع كل الأشياء وممتلكات «الرجل الكبير» فى مكانها بالحفر الثلاث، تماما على نفس الهيئة التى كانت عليها. فى الحقيقة، فكرت فى أننا لا نملك حق

حيازتها، ولا حتى الذهب أيضا. . ليس لنا أن نسلمه للشرطة. أليست هذه مقبرة لها حُرمتها، ولا يجب أن تغتُصب؟. هذا ما قدرته وطرحته على زميلى؛ فوافق عليه.

ـ أنت محق يا جونى. إن هذه التذكارات جميعها لهما وحدهما. . ليست لنا. ومن الواجب احترام روح «الرجل الكبير»، وروح ساندرا. لا يجب مطلقا أن نخيب ما كان من آمالهما.

قبل أن نبدأ فى وضع كل شىء فى مكانه، حرص روكى على التأكد من أن الأشياء الثمينة التى كانت حول نموذج السفينة صحيحة، ومثلما كانت. انتهزت فرصة انشغاله بهذه المهمة، لأكتب قائمة دقيقة بالموجودات. وكتبت فى مفكرتى الخاصة الأسماء والتواريخ المسجلة على الصورتين الفوتوغرافيتين، وتلك المدونة على صفحة من الإنجيل ذى الغطاء الأحمر.

الآن، أصبح كل شىء فى موضعه فى الأعماق. جلست القرفصاء فى قاع الحفرة، بعد أن فرغت من تصفيفها، ؛ فشعرت فجأة أننى عاجز عن الحركة، إذ دار فى ذهنى أننا بما قررناه لن نرى بعد الآن مطلقا تلك الأشياء. لم أستطع أن أحول عينى عن أجولة الذهب. . والتحف، وفى أعماقى يتردد سؤال محير: هل نحن على وشك ارتكاب حماقة، سوف ألوم نفسى عليها مدى الحياة؟!.

انحنى روكى أعلى فتحة الحفرة، منتظرا ـ فى صبر ـ أن أطلب منه مناولتى أول الأسياخ المدعمة للغطاء الحديدى. أمسك كل منا عن الكلام. ونفسى تحدثنى: هل يفكر هو فيما أفكر أنا فيه؟ محتمل. . . !.

إلى أن شعرت فجأة بيد الهندى تربت على كتفى برفق. رفعت عينى نحوه، وإذا بوجهه يكتسى بمسحة من العذوبة اللانهائية، تعكس مهابة جليلة باهرة. قرأت شعوره الداخلى، وصمته المطبق دل على استنكار أخرس. قلت:

ـ نعم يا روكى. .

ـ لا يا جونى! لا. .

قالها بصوت رقيق عاتب..

ـ لا.. ماذا؟.

ـ يا جونى.. يجب احترام ذكراهما، وأن نترك للأرواح ما يخصها، حتى تكون سعيدة فى العالم الآخر!.

ما إن تركت مكانى بقاع الحفرة، حتى بدأ صديقى يضع بنفسه أول الأسياخ الحديدية. لقد أدرك حالتى النفسية والفكرية المضطربة المشوشة، فتولى هو أداء تلك المهمة، حسما للأمر...

بعد الفراغ من ترتيب كل شىء على النحو السابق، سوينا الأرض، وكأنه لم يحدث أى تغيير، ثم أعدنا الفرن إلى ما كان عليه. وطوال تلك العملية..لم ينطق أحدنا بكلمة واحدة. واستمر الصمت الضاغط الرهيب سائدا لفترة بعدها.

ـ أخبرنى يا روكى.. لماذا لم تحدثنى مطلقا من قبل عن هذا الكوخ؟.

أنت كنت تعرف أنه موجود هنا.. أليس كذلك؟.

ـ ياه!.. هنا، وفى كثير من المواقع بالشمال الكندى.. نعم... بالتأكيد كوخ.. نعم «ماكى» كما نسميه نحن..!. كنت أعرف أن رجلا أبيض هناك، وربما كانت معه امرأة.

ثم توقف عن الكلام، كأنه يفتش فى أعماق ذكرياته.

ـ ماذا إذن؟.. هيا، تكلم بالتفصيل..!.

ذكر لى أنه منذ زمن بعيد ـ يرجع إلى القرن الماضى ـ والهنود (الحمر) من القبائل القريبة من المنطقة، كانوا يشيرون إلى وجود زوجين من البيض يعيشان فى معزل منذ سنوات بالشمال العظيم. وبمرور الوقت لم يعد أحد يعتقد أن هذا صحيح.. فلما انتقلت الحكاية من أب لابن، أصبحت أسطورة لا تكاد تُذكر الناس إلا نادرا بين العجائز!.

# «إن جاءكم فاسق بنبأ..» ، أو بالإعلانات!

لماذا يفضل البعض تقديم الظن السيئ على الحسن؟.. والأسوأ: لماذا، وكيف يُسرع البعض بنقل كل ما يُسمع، ويخوض فى أقدار الناس وأعراضهم قبل أن يتثبت ويمحِّص، إن كان يعنيه حقا ما يسمع؟. والأشد سوءا وخبثا: لماذا، وكيف، ومتى يحلو للبعض «توليف» إشاعات كاذبة خاطئة، تنال من سمعة شرفاء وأبرياء، وإن كانت لا تنقص من قيمتهم وكرامتهم..؟!، فقيمة المرء وكرامته فى نفسه، وفى رأسه: ما يقول وما يفعل، ما يسلك أو يترك، ما يُعطى أو يأخذ.

ما أكثر الإشاعات، وما أقبحها، أو على الأقل... ما أبعدها أحيانا عن الواقع والحقيقة!. وإشاعة: من شاع شَيْعُوعة، وذاع وانتشر.

إن سوء الاستيعاب والفهم من أسباب الذيوع والانتشار الخاطئ. وسرعة التلقى بدون تعقل أو تدبر سبب آخر. وضعف الشخصية واضطراب النفس مع ادعاء المعرفة سبب ثالث. وحب النميمة لتجريح الآخرين سبب رابع. والأنانية البغيضة التى تبغى الانتصار لنفسها بالحق وبالباطل سبب خامس. والفراغ أولا وأخيرا «يشيع» مع كل تلك الأسباب، وغيرها، لأن المشغول الممتلئ لا يشغل نفسه وفكره بعبث أو خبث.. والناس طبائع وصنائع.

«جان ـ نويل كابفرير» أستاذ جامعى ومؤسس مركز دراسة الإشاعات فى باريس، ومؤلف كتاب: «إشاعات»، وفيه ما يستحق من تأملات، لمن يريد أن يكف عن التفاهات، سنعرض بعضها على شكل تساؤلات...

* بداية: لماذا مركز لدراسة الإشاعات؟، وهل يهتم الناس بدراستها والتحقق منها؟.

** إن الإشاعات كانتشار الأخبار وأنباء الحوادث، فهى جزء من نشاط وحركة المجتمع. والعقلاء الذين يريدون معرفة الحقائق ومصادرها كثيرون. إن هذا المركز تلقى فى خلال أول عامين من إنشائه أكثر من عشرة آلاف مكالمة تليفونية، يستفسر أصحابها عن صحة إشاعات تسرى بين الناس، وهل هى صحيحة أم لا. أكثر من ستين اتصالا تليفونيا عن إشاعة واحدة، ألا يعنى هذا شيئًا؟.

ونتتبع نحن الإشاعة، ونحاول التوصل إلى مصدرها. ونبحث: كيف ولماذا «تجرى» وتنتشر؟، مستخدمين فى ذلك أدوات علمى: النفس والاجتماع، ونسأل الناس ونحاورهم. عندما تصدر إشاعة مثلا عن شخصية عامة مشهورة، نسأل الناس: ما هى فكرتهم عنه، أو عنها؟، كيف ينظرون إليه، ونبحث كيف يسلك ويعيش. . . . الخ.

* هل يمكن السيطرة على الإشاعة؟ هل يطلب أحد مواجهة إشاعة وإيقافها؟

** هذا يتوقف على مستوى الإشاعة ذاتها ومداها. المواجهة المثالية تتحقق عندما تكون الإشاعة مجرد تلميحات غير مدوية، بمعنى أنه لا يعرفها سوى أشخاص قلائل. ويمكن اتخاذ إجراءات أو ترتيبات تمنع من تحولها إلى إشاعة. وكثيرون جدا يتصلون بنا لهذا الغرض.

* وتكذيب الإشاعة، هل يخنقها؟.

** تكذيب الإشاعة ليس أفضل الأسلحة لقتلها. وربما على العكس، قد يكسبها قوة. . لسبب بسيط: أن الناس يحبون تصديق الإشاعات، وأن التكذيب يحفزهم إلى الميل نحو تصديقها، ويَعْلم من لم يكن يعلم.

* ألا يكفى إطلاق إشاعة مضادة؟.

** الإشاعة المضادة ليست إشاعة. مثلا هناك إشاعة تسرى بأن المخرج التليفزيونى (×) رئيس عصابة. الإشاعة المضادة: المخرج التليفزيونى (×) ليس رئيس عصابة، وهذا كلام لا معنى له ولا تأثير. وإذا كان هذا المخرج بالفعل سيئ السمعة، قبيح السلوك والأخلاق، فإن الناس حين تسمع الإشاعة المضادة عنه، تؤكد أنه هو مصدرها.

* فى عصر التليفزيون، والإذاعات ، والقنوات الفضائية، والصحف العديدة، والمجلات... أى الإعلام المكثف والمتلاحق من شتى المصادر، مازالت الإشاعات تُبث، وتنتشر ، وتجد أُذنا صاغية!.

** كان الظن قديما أن الإشاعات والأكاذيب تنتشر، لنقص أو غياب الإعلام المناسب، وسرعة التعرف على الحقائق، أى بسبب قصور فى الوسائل التكنولوجية. المنطق يقول: إن الإنسان العاقل الرشيد أولى به أن يستمع فقط إلى مصادر المعلومات المنضبطة الموثّقة، وليس إلى الإشاعات العشوائية التى لا يُعرف مصدرها.. لكن للأسف.. تعبير «معلومات منضبطة موثقة» كالعملة، له وجهان، لكنهما متناقضان: فإن معناه يحتمل «التحقق والانضباط»، ويحتمل أيضا «التنقيح وإخفاء التصريح». وهناك أيضا المعلومات المشوهة والمبتورة والمحشوة بقصد معين. وكثير من الناس فى كل الدول والمجتمعات يعتقد أن التليفزيون والإذاعة والصحف لا تقول كل شئ. ويتأكد هذا الاعتقاد وينتشر فى الدول التى تشتد فيها الرقابة الإعلامية.

لقد أظهرت دراسة طريفة وقيمة أيام الاتحاد السوفيتى (قبل زواله) أن ٩٥٪ من الذين شملتهم الدراسة ـ وهم فى مناصب ومستويات ثقافية عالية ـ يصدقون الإشاعات، أكثر من تصديقهم للبيانات والتصريحات الرسمية!.

* لماذا تنتشر الإشاعات بهذه السرعة والحماس؟.

** الأسباب نفسية وشخصية. إن معرفة الإشاعة مبكرا، معناه معرفة أشياء، وربما أسرار لا يعرفها الآخرون. وهذا فى ذاته نوع من التميز (ولو كان على أساس واهم).. فالناس فى أعماقهم يؤمنون بأن الكثير من الحقائق محجوب عنهم، فيعشقون الإشاعات، خاصة ما يتعلق بالسلطة، برجال

السياسة، بالمشاهير، بأفراد العصابات والسفاحين... ومعروف من زمن قديم دور الإشاعات فى الصراعات السياسية والحزبية، وفى أوقات الانتخابات. هناك أوقات حرجة يحسبها المتنافسون السياسيون بمهارة ودقة، يُطلقون فيها إشاعات مغرضة ضد خصومهم، يكون لها تأثير فعال مباشر، بحيث لا يجد الخصم الوقت المناسب لدحْضها، أو احتوائها لصالحه.

* أليس فى تكرار الإشاعة، وانتقالها من شخص إلى آخر، وهكذا.. تدعيم لها وقوة؟.

** فى الواقع، يتناقل الناس الإشاعة بالدوران حولها. ولكى يُضْفون عليها الصدق والثقة، يضيفون إليها، أو يسبقونها بكلمات، مثل: «قال لى صديق - أو من مصدر ثقة - فى منصب كبير..»، أو «سمعت من أستاذ جامعى له صلة بـ .....»، أو «حدثنى فلان عن (×) المشهور المعروف بـ ....»[1].

إن الإشاعة محاولة لإثبات القدرة على الإقناع. فإذا أبدى المستمع لها مقاومة أو رفضا، بذل المتحدث بها جهدا للتغلب على هذه المقاومة أو الرفض. إذن، فهى إرادة الغلبة والانتصار للرأى. هى الدافع عند المتحدث بالإشاعة، أو الرافض لها. ومن العسير على المرء أن يتقبل بسرعة - وبلا اكتراث - أن من يُخاطِب، ومَنْ يستمع إليه لا يصدق كلامه.

من ناحية أخرى.. فإن الإشاعة مرتبطة بالبيئة أو المجتمع وظروفه، وبتوقيت أو فترة زمنية معينة. فى مجتمعات مثلا كألمانيا وفرنسا، يهتم الناس كثيرا بالأمور الصحية[2]. والإشاعة تهيئ نوعا من الهدوء النفسى، أو قبول

---

(١) ونحن بدورنا نضيف: عندما نسمع فى نشرات الأخبار، أو نقرأ فى الصحف تعبيرات مثل: «وقال مصدر مطلع..»، أو «وعلمنا من مصادر وثيقة...»، أو «وصرح المراقبون...»، أو «ويرجح الخبراء أن...»، عند سماع ذلك أو قراءته، ألا يؤكد ذلك عند الناس الميل إلى تصديق النبأ المجهول المصدر، وبالتالى الإشاعات؟!، فمن هو ذلك المصدر المطلع، والمراقب ماذا راقب؟ ومن ومتى؟!.

(٢) البرامج والموضوعات الصحية فى التليفزيون الفرنسى على رأس قائمة المواد المشاهدة فى الإحصاءات، وتسبق أشهر الأفلام والتمثيليات التى بها كبار النجوم، وذلك لاهتمامهم الشديد بالأطفال وصحتهم، وأيضا لوجود عدد كبير من المسنين ومشكلاتهم الصحية.

الواقع. مثلا: إذا تواترت إشاعة بأن الشخصية المرموقة أو الفنان المشهور (أو الفنانة) مصاب بمرض كذا الخطير، ويُخفى الإعلان عنه، فإن مستمع الإشاعة يقول فى قرارة نفسه: «إنه هو، رغم ثرائه، أو شهرته، أو منصبة، وليس أنا.. الحمد لله».. وكذلك الحال إذا كانت الإشاعة تتعلق بكارثة، أو فضيحة حدثت له (أو لها).

* وهل الإعلانات مجال لإطلاق الإشاعات الكاذبة؟.

** نعم.. فكثير من الأطفال بالذات يعتقد أن محتوى الصور الإعلانية المتلاحقة، سريعة الإيقاع، وشديدة الجاذبية، المتعلقة بمُنتج ما، هى صحيحة تماما، والكلام المصاحب لها صادق كل الصدق. وقد لا يكون كذلك، بل قد يكون مضرا (كما ثبت فى بعض الحالات). ويؤمن الصغار بأن لهم الحق فى الحصول على هذا المنتج، أيا كان، وربما لا يفيدهم، وربما ليسوا فى حاجة إليه. إن الإشاعات الإعلانية لها تأثير كبير وخطير، خاصة لدى الصغار.

فى الوسط الإعلانى تُستخدم أساليب (تكتيكات) حاذقة وذكية، ترتكز على استغلال الإشاعة المثيرة التى تصيب المنافس فى مَقْتل. وقد يكفى مثلا أن يشيع بين الناس أن منتج كذا يسبب دوارًا (صداعا)، أو تلفا فى الجلد أو الملابس، أو هو من إنتاج شركة تهريب أموال أو تجارة مخدرات، أو يصيب بالضعف الجنسى، أو يؤثر فى الإنجاب....

إن كل من يحمل إشاعة، يسمعها المستمع إليه لأول مرة، يتلقى «مكافأة» تُريحه وتُرضيه: أن يسمع ممن يُصغى إليه تعبيرا مثل «إنك حصيف، ما كنتُ أعلم ذلك.. لقد أرشدتنى.. آه.. هذا مدهش .....».

إذن، فانتقال الإشاعة هو «صفقة متبادلة»: فى مقابل إعطاء معلومة، يحصل الناقل على إعجاب المتلقى واحتفائه به. وهذا الأسلوب أو (الميكانيزم) هو الذى يفسر: لماذا وعند أى حد يتوقف سريان وانتشار الإشاعة... وهذا بالطبع عندما يعرفها الجميع .. كل الناس!.

ومع ذلك.. فبعض الإشاعات يتوقف أو يختفى هنا، لكنه يظهر ويسرى هناك، فى مدينة أو منطقة أخرى. وقد يكون للإشاعة الواحدة «دورة» تنتشر فيها، ثم تتوقف، ثم تعود سيرتها الأولى. وعندما تتبعنا بالدراسة إشاعة معينة، ووجدناها اختفت من مدينة، وثبت أنها مفتَعَلة كاذبة، ثم ظهرت فى مدينة أخرى، وسألناهم: لماذا تصدقونها، وقد تحققنا فى مدينة كذا من عدم صحتها؟؛ قالوا: «ربما كانت غير صحيحة هناك، لكنها صادقة وحقيقية هنا»!. ويدهشنى أحيانا ثقة الناس فى الإشاعة، والتسليم بصحتها على الفور، وعدم محاولة التحقق من مصادرها.

* والصحف.. تقول فى كتابك: لا تأخذ الأمر أحيانا مأخذ الجد، فتساعد على نشر إشاعات (ولا تقول إنها مفتعلة) دون أن تتحقق من صحتها، أو الرجوع إلى المصدر.

** إليكم هذه الواقعة النموذجية: منذ سنوات سرى مسرى النار فى الهشيم (أى بسرعة، كالنار فى الورق الجاف) خبر حادثة، وكانت صادقة مائة فى المائة، وتلقفه رواد مجموعة من المطاعم الباريسية فى ليلة واحدة، ونشرته جريدة «لوموند» المشهورة فى اليوم التالى: بينما كان أبوان يتناولان طعام العشاء مع أصدقاء لهما فى مطعم فاخر بالمدينة، تلقيا مكالمة تليفونية من ابنهما فى البيت الذى يقع بالحى الراقى، يخبرهما أنه قتل لتوه شخصا كان يتجول فى الظلام بالبيت. فلما أسرع الوالدان إلى منزلهما، وجدا جثة مطروحة على أرضية حجرة الاستقبال. إن ابنهما قتل لصاً مقنَّعا، فلما كشفا القناع، ظهر أنه ابن الأسرة التى كانت تستضيفهما على العشاء!.

إنها صورة أو شكل من أشكال الصيغة المأساوية الكلاسيكية، التى فيها يقتل الأب - أو الأم - ابنه، دون أن يعلم أنه الابن (أو الابنة)، وهى تتكرر مرارا فى الأدب. وماذا يعْنى هذا؟. إن الإنسان قد يفعل الشر، وهو يظن أنه الخير، وإنه لا يجب أن يُقدم المرء على القتل فى أى الظروف، لأنه يقتل إنسانا شبيها به، إن لم يكن ابنه حقا، أو ابنته.

وتقول هذه الإشاعة أيضاـ أو تهدف إلى القول ـ بأن «الجريمة» فى كل مكان ومستوى اجتماعى، وأن القاتل يمكن أن يكون من طائفة العلية أو الأثرياء، وداخل الأسر المبجلة. إنها تعبير عن القلق، وعن السخط إزاء النتائج المؤلمة البشعة، عندما يجعل المرء من نفسه قاضيا، يصدر حُكما وينفذه، ويقتص لنفسه بنفسه، بحجة الدفاع عن الكرامة، وعن النفس.

إن دور الصحافة دقيق وحساس للغاية. ولنطرح مثالا: لنتخيل أن عَلَما من الشخصيات الأعلام، أو نجما من المشاهير أصيب بمرض خطير. هذا حدث، أو خبر، سيتلقفه نوعان أو نمطان من الصحافيين: أحدهما سيتكلم عنه فى مجالسه الخاصة، ولكنه سيمتنع عن نشرة. والآخر سوف يكتب: «لا صحة لما يشاع (أو يقال) من إصابة.. بمرض كذا»، فهو يكذِّب شيئا لم يسبق النشر عنه مطلقا.. وهذا ـ فى الحق ـ مكر شديد.. ونفس الشئ للذى يكتب: «من حق نجوم المجتمع الاحتفاظ بالصمت إزاء أمورهم الشخصية..». إنه تلميح إلى وجود، أو وقوع شئ ما، له خطره، ومازال سرا. وهنا يبدأ تكوين الإشاعة. وهذا أمر جد خطير، لأنه من بين عشرة آلاف ستسرى بينهم الإشاعة، ثلاثة آلاف على الأقل سيقولون: «انظروا..هذا الكلام المنشور يؤكد صحة الإشاعة».

* هل يمكن معرفة مصدر الإشاعة؟.

** فى بعض الحالات.. نعم.. حدث ذات مرة أن اتصل تليفونيا شخص بأحد البنوك يسأل قسم الاستثمار: هل ستشترى شركة كوكاكولا أسهم شركة ريشار؟. ربما كان سؤالا بريئا، وربما كان مدسوسا عن قصد من شركة منافسة، لكن هذه المكالمة التليفونية العابرة كانت سببا فى انطلاق إشاعة، أثرت بشدة على قيمة الأسهم فى البورصة. وهى طريقة معروفة فى نشر الإشاعات.

وهناك الإشاعات التى تتخطى حدود الدولة، وتصبح «عالمية». منذ سنوات ظهرت فى ستراسبورج إشاعة أن رجلا أسود أكل ذراع لص اقتحم مسكنه. ونفس الإشاعة ظهرت فى الولايات المتحدة الأمريكية، وفى ألمانيا، وغيرها. ومنذ سنوات أيضا سرت إشاعة ـ لا أساس لها من الصحة ـ فى فرنسا،

ونشرتها إحدى كبريات الصحف تحت عنوان (مانشيت) كبير: عن وجود عدسات للعين لاصقة، تسبب العمى فى الحال. وسرعان ما ظهرت الإشاعة، وشاعت فى أستراليا، وسويسرا، وألمانيا، والولايات المتحدة الأمريكية.

* ولماذا بهذه السرعة؟.

** لأن وسائل الإعلام الكبرى فى كثير من الدول تتردد كثيرا، بل وتحجم عن الحديث أو الإشارة إلى أمراض الشخصيات المعروفة، وتعتبر هذا مرمى لا يجب اقتحامه، فتنشط حوله الإشاعات بديلا عن وسائل الإعلام. وغالبا ما تتمسح الإشاعة من هذه بأحد كبار الأطباء، لإضفاء الثقة على معلوماتها: «سمعت من ـ أو عن ـ الأستاذ الدكتور (×) المشهور، أن فلانا يعانى من مرض كذا...»، أو «صديقى القريب (أو النسيب) من الدكتور خبير أمراض كذا، علم منه أن فلانة.....». هناك عادة صلة بين موضوع الإشاعة، وبين المصدر الذى يُتَّخذ متكأً للوثوق بها.. فإذا كانت تتعلق مثلا بحادثة قتل، أو تهريب، أو شبكة دعارة، يقال فى أول الإشاعة: «علمت، أو حدثنى ضابط كبير بالشرطة أن....».

وغالبا، كلما كانت الشخصية التى تدور حولها إشاعات.. شخصية كبيرة، ولها موقعها، أو مكانتها فى المجتمع، وشهرتها، ومنغلقة على نفسها، أو تحيط نفسها بالغموض، ولا تفسح مجالا مطلوبا ـ بل محتما ـ فى التعرف عليها بوضوح وثقة، والتآلف معها؛ فإنها لن تسلم من الحديث عنها بالحق وبالباطل، بالصدق وبالكذب.

نعم.. إن الغموض فى الأعالى، وعند القمم كالضباب، والظلمات عند السفح. وفى الظلام يمكن أن يحدث كل شئ، وأن يدور همساً أى شىء!.

# سجون وشجون

لا يخلو مجتمع من جريمة. تلك ظاهرة إنسانية معروفة، حتى من قبل أن يُخَلق الإنسان: «أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء»؟، هكذا قالت الملائكة عن خليفة الله فى الأرض.

ومع تطور الحضارات، تغيرت أساليب مواجهة الجرائم وعقاب المجرمين والمفسدين فى الأرض: من الصلب، والحرق، والخوزقة، والدفن حيا، وصب الزيت المغلى، وتقطيع الأجزاء الحية من الجسم، ونزع الجلد، والرق، والسخرة.. إلى الإعدام السريع، والأشغال الشاقة، والسجن، والحبس، والعقوبات المالية والشخصية (كالحرمان من الحقوق السياسية، أو الوظيفية، أو التعاملية...).

ولكل مجتمع تشريعاته التى تصدر عن فلسفته أو نظرته إلى الجريمة والعقاب، وأساليب تنفيذ الجريمة والقصاص من مرتكبها، وردع الآخرين، وكبت نوازع الشر والعدوان فيهم، وقاية لهم وللمجتمع الذى يعيشون فيه، ووضعاً فى الاعتبار تشريعات ونظم، وإجراءات المحاكمة، وإصدار الأحكام.

فى النصف الثانى من القرن العشرين، ومع تزايد المطالبة بالمحافظة على حقوق الإنسان، حتى ولو كان يقضى فترة عقوبة، أو كان محتجَزًا رهن التحقيق والمحاكمة، ظهرت فى بعض الدول أساليب فى معاملة و«تهذيب» المعاقبين، بعضها يجعل من السجن مكان احتجاز وإقامة أشبه بالفندق (باعتبار أن القصد هو تقييد الحرية فقط)، وبعضها يغالى فى الضبط والربط، أى

استخدام نظام صارم لا يهين الجسم، ولكن يحفظ للحياة داخل السجن قدرا كبيرا من الهدوء والرهبة. وهذان مثالان من بين عشرات النماذج والأساليب المستحدثة... ثم نماذج من بلاد أخرى.

فى الولايات المتحدة[1]: تطبق ٣٥ ولاية حكم الإعدام، وألغتها ١٥ ولاية. وفى كل يوم تستقبل السجون الأمريكية نحو عشرة آلاف نزيل يدخلونها لأول مرة. وفيها يعيش باستمرار نحو مليونين من المحكوم عليهم فى مختلف الجرائم. والتليفزيون، والراديو، والصحف، والكتب، وممارسة الألعاب الرياضية، والهوايات الفنية، والنوم على الأَسِرَّة، وزيارات الأهل، والدراسة، والتدخين... هذه كلها حقوق متاحة ومألوفة داخل السجون. وبينما يغمض المسئولون أحيانا أعينهم عن عمليات «التصفية» الجسدية للمسجونين المشاغبين الخطرين بتسليط بعضهم على بعض، فهناك السجون النموذجية، ويسمونها أحيانا «المختلطة»، حيث تتلاشى فيها القيود إلى أدنى حد..

وكما يقول مدير إحدى تلك المؤسسات: «من الطبيعى أن الرجال والنساء محتاج بعضهم إلى البعض، فالاختلاط بين الجنسين أمر ضرورى فى نظامنا العقابى، حتى لا يظلم القوى الضعيف، لذلك.. يتناول الرجال والنساء وجباتهم معا فى قاعات الطعام، أو فى محاضرات التثقيف والتوعية والتهذيب النفسى أو الدراسة. أما العلاقات «الخاصة»، فممنوعة تماما، باستثناء «قبلات» الصداقة والترحيب العابرة.. ومسموح للزوجات بالاختلاء بأزواجهن فى حجرة خاصة لفترة محدودة. وأثمر أحد تلك اللقاءات ميلاد طفلة. كما يسمح للمسجونين حسنى السلوك، والمحكوم عليهم بعقوبات خفيفة أن يخرجوا لبعض الوقت إلى المدينة، والعودة ثانية إلى السجن، تقديرا لحسن سلوكهم، وتشجيعا للآخرين على الاقتداء بهم.

---

(١) حجم أموال التعامل فى «الجريمة» بكل أنواعها فى الولايات المتحدة نحو مائة مليار ـ نعم مليار ـ دولار فى السنة. وبالطبع لا تدفع عنها ضرائب. والأرباح التى يحققها الجنس والدعارة وحدهما تفوق أرباح الحديد والصلب والنحاس والألومنيوم معا.

ولما كان تعاطى المخدرات شائعا داخل السجون، فقد ثبت أن نزلاء السجون المختلطة أقل من غيرهم تعاطيًا لتلك السموم.. بل إن أحد النزلاء أصيب باضطراب نفسى، فأذن له بالخروج لقضاء ليلة ـ على حسابه طبعا ـ بملهى ليلى، والعودة فى الصباح التالى.. منتعشا!.

والملابس فى هذه النوعية من «السجون» عادية، والنساء ـ وهن يقمن فى جناح منفصل عن الرجال ـ مسموح لهن بارتداء ما يخترن من أزياء، طويلة، أو قصيرة، أو أقل من القصيرة، وأيضا وضع مساحيق، وألوان الزينة والعطور، وتزيين الغرفة ـ مثل الرجال ـ بالصور واللوحات والستائر.

وسور السجن لا يزيد ارتفاعه عن متر ونصف من الأسلاك غير الشائكة. والتجول فى حدائق السجن متاح فى أى وقت، حتى قبيل الغروب، فرادى، أو ثنائى من نزيل ونزيلة، أو مجموعة «أصدقاء» من نزلاء ونزيلات.. ورجال الحراسة والحارسات عليهم المراقبة فقط.. من بعيد!.. ومع ذلك، ليس من المتوقع أن تدخل هذه السجون النموذجية ـ جدا ـ فى إعلانات الشركات السياحية تحت عنوان: إجازة سعيدة فى سجن (....) الثلاثة نجوم... مجانا. وربما كانت هذه النظرة العقابية سديدة رشيدة.. فالحرية شىء ثمين لا يستهان ـ عند الأحرار ـ بقيمته وآثاره. وقديما، عندما كانت العناية بزرع القيم والركائز الأخلاقية التربوية جزءا أساسيا من مناهج التعليم، لتنمو وتثمر سياجاً داخل النفس والضمير، يحول فيما بعد بين المرء واقتراف الجرائم، أو حتى التفكير فيها، كانوا يعلموننا صغارا نشيداً، ظل عالقا بالذاكرة حتى اليوم، بعد نحو ستين سنة، وكنا نردده وننشده ملحنا، ونصوره رسما فى لوحات طفولية ساذجة، وفيه:

**قد كان عندى بلبل　　فى «قفص من ذهب»**
**وكان يشدو دائما　　بكل لحن مطرب**
**ولم أكن أمنعه　　من مأكل أو مشرب**

ففر منى ونأى بدون أدنى سبب
وقال لى: حريتى لا تشترى.. بالذهب

ليت هذا «البلبل» الحر، يبكى أو ينوح على من يبيع حريته.. بتراب الذهب.

جرى الذهب أنهارا فى اليابان.. وفى أشكال مختلفة: أرصدة الأفراد والمؤسسات الصناعية والإنتاجية العملاقة، والبنوك الضخمة المتخمة، والمشروعات الهائلة حجما وعددا، وهى الدولة التى خرجت من الحرب العالمية الثانية مهزومة منكوبة مستسلمة. ومن بين ضجيج آلات الصناعة، وشعارات الأفكار المستحدثة الوافدة، وإبهار الدعايات المغرية المغرقة، ورنين ذهب الثروات الصاعدة المتصارعة، توالى ظهور رؤوس فاسدة مفسدة، أدينت بالرشوة والتزوير والسرقة، وسوء استغلال المنصب أو الوظيفة، من وزراء وأقطاب أحزاب وسياسة، وبنوك ومؤسسات، وجرائمهم بالملايين.. عشرات ومئات الملايين، تتناسب مع «حجم» اليابان فى أسواق الصناعة والتجارة والمال فى عالم اليوم.. وتوارت قيم أسرية واجتماعية، عاش عليها شعب كان فريدا فى فلسفته وحكمته وحكومته من آلاف السنين.. فكان مصير هؤلاء الفاسدين: السجن.

والسجن فى اليابان مؤسسة عقابية، لها أيضا نظامها المتميز.. فعند دخول المحكوم عليه لقضاء مدة العقوبة، يشرح له بالتفصيل نظام «الإقامة» فى السجن. والويل له كل الويل لو خالف ـ ولو عن غير قصد ـ شيئا منه، ولو بعد سنة، أو ثلاث، أو عشر. أولا: النظافة الكاملة، والترتيب وفقا للنظام العام. ومعنى ذلك أن السرير فى عنبر النوم يكون مع الاستيقاظ المبكر من النوم ـ مباشرة ـ مرتبا منسقا. والدولاب الصغير خلفه مرتب ونظيف، والرف المزدوج فوقه لامع منسق، وفوطة الوجه متدلية تحت الرف، مفرودة جيدا. لاشىء مطلقا على الأرض أو الحائط، ولو كان خدشا بقلم. ونظافة الجسم لها أيضا قواعدها.

التعليمات مكتوبة فى كل مكان يمر به السجناء واضحة بأربع عشرة لغة. توضح مثلا كيف يبدأ السجين النوم، وعلى أى جنب، ولو خالف يعاقب. إذا كان مسموحا له فى الصباح بغسل الوجه، فلابد أن يكون الوجه فقط، وإذا زاد أو نسى، ووضع نقطة ماء على رأسه؛ يعاقب. وفى وقت الاستحمام عليه أن يجلس القرفصاء فى طابور الانتظار بشكل معين، وإذا خالف أو اهتز؛ يعاقب. فى أثناء تناول الطعام بالقاعة المخصصة لذلك.. الدخول بنظام محدد، وكذلك الجلوس والخروج. وإذا جلس، يغمض عينيه، ولا يفتحهما إلا مع إشارة صوتية ليأكل فى زمن محدد. فى ورشة العمل: يفعل نفس الشىء. وإذا نظر إلى عين الحارس، يعاقب (حارسان فقط فى الورشة، غير مسلحين، وبها يعمل مائة وعشرة مساجين). والكلام: غير مسموح به على الإطلاق، ولو همسا، لا فى عنبر النوم، ولا فى ورشة العمل، ولا فى دورات المياه، فقط لمدة ثلاث ساعات ونصف الساعة - ولا صخب - بعد وجبة العشاء، عقب غروب الشمس. التدخين ممنوع تماما، وكذلك أى طعام أو شراب غير المخصص. ولذلك.. فسجون اليابان هادئة، وطوال النهار صامتة.

معروف فى اليابان، أن المرء - أو المرأة - بمجرد وضع القيد الحديدى فى يده، حتى ولو كان رهن التحقيق أو المحاكمة، فإنه يدخل عالما آخر، يختلف عن عالمه الذى جاء منه... فقانون السجون هناك يرجع إلى عام ١٩٠٨، ويطبق بكل حزم وصرامة. وفلسفته باختصار: «نقل الشخص كلية من مألوف الحياة التى اعتادها، بلا عقاب جسدى، إلا عند الضرورة... فالسجن هو احتباس العقل - مصدر التفكير فى الجريمة والشر - وليس الجسم». ويترك القانون لإدارات المؤسسات العقابية تنفيذ نصوصه - فى إطار تلك الفلسفة - حسب ما يرونه، تبعا لظروف سجونهم، وأحوال نزلائها... أى يعطيهم حرية فى التنفيذ، ولكن بشرط: الصرامة، والحزم.

وما جزاء من يرتكب محظورا؟، كأن يبحلق فى عين الجاويش، أو يتحرك حركة غير مطلوبة أثناء جلوسه بالورشة، أو انتظاراً للاستحمام، أو حتى

«هرش» جلده على مائدة الطعام (ليست هذه مبالغة، بل حدث بالفعل)، أو نفخ تأففا أمام الحارس.. ما جزاؤه؟.

الخطأ الأول الذى يرتكبه المسجون، عقابه وضع القيد فى يده، وربط ذراعيه إلى الجسم بحزام من الجلد يلتف حول الصدر والظهر؛ فلا يستطيع تحريكهما، وذلك لمدة يومين كاملين (ولا يهم إذا استطاع أن يأكل على هذا النحو، أو لم يستطع، وعلى هذه الصورة أيضا يقضى حاجته فى دورة المياه من فتحة بسرواله). أما العزل، فهو الحبس الانفرادى بقيد، أو بدون قيد، لفترة قد تطول أياما، وقد تمتد إلى شهر أو شهرين متتابعين، ولكن دائما فى صمت مطبق، حتى ولو كلف بعمل يدوى لمدة ثمانى ساعات يوميا وهو جالس ـ لا يتحرك ـ فى زنزانته، وهى من الأسمنت، غير مطلية الحوائط، كما فى عنابر النوم العادية. والعقاب الأشد: الحبس الانفرادى، مقيد اليدين والذراعين عدة أيام داخل «القفص» كما يسمونه، وهو كشك من الخشب بلا نوافذ، يكاد يصيب بالجنون. وليس نادرا أن تُزهق أرواح بعض المسجونين ـ وإن كانوا قلائل جدا ـ أو يزهقونها هم بأنفسهم، للخلاص من هذا النظام المؤلم.

وفى يوليو عام ١٩٩٦، رفع والدا «يوشيمى ساكاموتو» شكوى إلى القضاء، يطلبان من الحكومة تعويضا قدره ما يعادل ٥٥٠ ألف دولار أمريكى، لأن ابنهما الذى عوقب بالسجن بسبب قيادته السيارة وهو مخمور، توفى أثناء تنفيذ العقوبة.

والقانون اليابانى يبيح لسلطة التحقيق مع المشتبه فيهم، اعتقالهم لمدة قد تصل إلى ثلاثة وعشرين يوما. وأثناء هذه الفترة... توجه إلى المشتبه فيه الأسئلة، ليجيب عنها كتابة فى العادة. وإذا لم يستجب بسهولة، يعنف بالكلام، أو يُمنع عنه الطعام والماء، أو يُطلب منه الوقوف فى وضع معين لمدة ساعات.. فإذا لم تُفلح معه طريقة من هذه؛ يستخدم العنف؛ وفى ٩٩,٩٪ من الحالات يكون الاعتراف. وأحكام محاكم الدرجة الأولى هى الغالبة التنفيذ،

فالاستئناف لا يقرر إعادة النظر، إلا بمعدل ٢٪ من القضايا فقط، ولذلك.. لا قضايا متراكمة بالسنوات، ولا مط فى الإجراءات، ولا تكدس فى السجون، لأن اختراق ـ أو مخالفة ـ القانون فى اليابان أمر مرعب. ومع ذلك.. تشير الإحصاءات إلى أن ٤٥٪، من المسجونين، يعودون إلى ارتكاب جرائم بعد الإفراج عنهم!.

لكن، من المؤكد ـ من واقع الإحصاءات ـ أن النظام المتبع داخل السجون اليابانية يخفض من أعداد مرتكبى الجرائم.. فبالمقارنة: لا يوجد فى سجون اليابان تجمهر للمسجونين، أو تذمر، أو إضراب، أو احتكاك بالإدارة، كما يحدث فى بلاد أخرى. وبلغ عدد المسجونين فى الفترة من ١٩٩٠ إلى ١٩٩٥ فقط ٤٦ ألفا، أى بمتوسط ٤٧ لكل مائة ألف مواطن، مقابل ٤١٥ سجينا فى الولايات المتحدة (لكل مائة ألف)، و٧٥ فى ألمانيا[١].

والنصيحة الواجبة بعد ذلك: حذار من مخالفة القانون.. فى اليابان.

**فى سويسرا...**

جربوا نظام السجون النموذجية. فى مدينة ساليز مائة وعشرون سجينا «نموذجيا»، مع كل منهم مفتاح باب زنزانته، ودراجته، أو الموتوسيكل الخاص به فى الجراج.. كل صباح يخرج واحد منهم يقود سيارة بدون حارس، ويذهب إلى مكتب البريد لإحضار الرسائل. وفى الشتاء يسمح لهم بالانتقال ـ بلا حراسة ـ ومعهم زحافاتهم للتزلق فى ساحة النادى المجاورة للسجن، تحت مسئولية رئيس المجموعة، وهو واحد منهم. وفى العودة يصحبهم سكان المدينة فى سياراتهم إلى السجن!. العجيب أن سجينا حكم عليه بالسجن المؤبد، قضى ثمانى سنوات فى أحد السجون العادية، ثم نقل إلى هذا السجن النموذجى. وبعد فترة قصيرة، طلب إعادته إلى السجن الأول، لأنه «لم يتحمل المعيشة فى هذا السجن.. النموذجى»!.

(١) حسب إحصاء عام ١٩٩٣، بلغ عدد الذين تم التحقيق معهم فى الجرائم المختلفة فى الولايات المتحدة نحو عشرة ملايين شخص.

**فى الدانمارك...**

يسمح السجن النموذجى بإقامة السجينة فى زنزانة واحدة مع سجين تختاره. ويتم التعارف و«الوفاق» بينهما، وبشرط واحد: لا يسمح لها بتغيير مرافقها إلا مرتين فقط، طوال الفترة المحكوم عليها بها. والمساجين «العزاب» مخصص لهم ثمانى حجرات، يستطيع أى منهم اصطحاب «زميلة» - أى سجينة - فى غرفة منها، ويعلق على الباب لافتة تقول: «الغرفة مشغولة.. رجاء عدم الإزعاج».. والمواليد ترعاهم إدارة السجن.

**فى بريطانيا...**

السجن النموذجى يضم ملاعب مكشوفة، وأخرى مغطاة لكل الألعاب.. ومتاح للجميع ممارسة الهوايات الفنية، كالرسم والنحت والتصوير، وتعرض الأعمال الفنية فى معرض بالمدينة (ويْلاند). وداخل السجن يتجول الرجال والنساء بحرية، وفى «الزنزانات العائلية» التى يمكن حجزها لبعض الوقت. فى السجن بنك، وكافيتريا، وسوبر ماركت، ولا حراس بالداخل... الأسوار مراقبة فقط بالكاميرات التليفزيونية.

**فى اليونان...**

أبواب السجن النموذجى مفتوحة. ويتولى المسجونون رعاية قطيع من الأغنام بالمرعى المحيط بالسجن، ولهم - إن أرادوا - المبيت بجوار الحظائر فى أماكن مجهزة لذلك. وبقية المساجين يتولون زراعة الخضر والفاكهة، والإشراف على المزروعات بالكامل. ويعتمد السجن تماما على إنتاج اللحوم والخضروات والفاكهة من مزارع السجن، ويرسل الفائض إلى السجون الأخرى. وملحق بإدارة السجن مهندس زراعى، وخبير حدائق، لإرشاد المزارعين، أى المساجين. ومسموح لهؤلاء بالخروج إلى المقهى المجاور للسجن، لقضاء بعض الوقت. ولم يقع حادث واحد داخل السجن. ومحاولات الهروب من السجن نادرة... بل إن أحد المسجونين لسنوات طويلة «حزين»، لأنه على وشك الخروج من السجن، لانتهاء فترة العقوبة.

**فى بلجيكا...**

يترك للسجين بالسجن النموذجى حرية إحضار الأثاث الذى يريده، والمفروشات، والستائر، واللوحات التى يعلقها على الحائط، أو التماثيل، ونباتات الزينة، وأقفاص الطيور.. وحرية ارتداء الزى الذى يختاره، وممارسة هواياته الفنية أو الأدبية والرياضية. وتحت تصرف المساجين كابينة تليفون للاتصال بالخارج، وكافيتريا. ويختار «النزلاء» كل يوم قائمة الطعام التى يرغبونها..

فى النهاية تقول التقارير: حوادث الشغب داخل هذه السجون معدومة، والانفعالات الحادة نادرة، ومحاولات الهرب لا تكاد تُذكر، والكل مستريح: السجين، والسجَّان، فلا مجال هنا لترديد القول المأثور: أشد الناس قلقا فى السجن.. السجان..!.

obeikandl.com

obeikandl.com

# أمير يتمنى أن يُشنق

وبمناسبة الحديث عن السجون والمعتقلات وتنفيذ الأحكام.. ربما يذكر جيل أواخر الثلاثينيات وأوائل الأربعينيات من القرن العشرين (فترة الحرب العالمية الثانية) بعض ما تعلمناه فى المدارس الابتدائية، يوم أن كان للمدرسة هيبة، وجلال، وطلاوة، وقيمة.

مثلا: كان أستاذ اللغة العربية، الشيخ أحمد ـ رحمه الله، وكل من علم وربَّى ـ أستاذا مربيا، قبل أن يكون معلما، منحه الله بسطة فى العلم والجسم، فكنَّا صغارا نخشى أثر غضبه خشيتنا من الموت، ونحب درسه حبنا للعبادة. وبينما كنا نتحاشى تماما لقاءه فى طرقات المدينة (بنى سويف)، مهابة واحتراما، كنا نحرص كل الحرص على حضور فترة «الهوايات» لمدة ساعة كاملة بالمدرسة، بعد انتهاء حصص الدروس اليومية.. فيعلمنا جماليات الخط العربى، وحلاوة تذوق الشعر، وفن الخطابة، وأحكام التلاوة، وبلاغة التعبير.

وكان بالمدرسة ـ واسمها فاروق الأول الابتدائية ـ تدريب على هوايات أخرى متنوعة مع الأساتذة المتخصصين ـ بالمجان ـ مثل: العلوم، والجغرافيا، والتاريخ، والتصوير، والصحافة، و«شىء» اسمه الموسيقى، والرسم، والفلاحة فى حديقة خاصة بالتلاميذ، غير الحديقة المزهرة التى يطل عليها مكتب الناظر، وغيرها حديقة ثالثة فى الجانب الآخر من المدرسة. أما الألعاب الرياضية، فلها ملاعب كاملة مجهزة لكرة القدم، والسلة، والطائرة، وملعب مغطى (جمينيزيوم) به كل أجهزة ألعاب الجمباز، ومسرح كامل، يسع أكثر من

خمسمائة متفرج لهواة التمثيل، بستائره من القطيفة القرمزية، الموشاة بالزخارف المذهبة، وعليه يقام الحفل السنوى للمدرسة. أما قاعة السينما، فهى مثل أى دار عرض سينمائى، بمقاعدها المدرجة، وشاشتها الكبيرة، تنظَّم فيها للتلاميذ عروض تثقيفية وتعليمية وفنية ـ كلها بالمجان ـ يتولى الشرح عليها أساتذة المدرسة المتخصصون، كل فى مادته، وذلك فى الفسحة الكبيرة بعد تناول الغداء فى مطعم المدرسة (وجبة كاملة) ـ بخلاف وجبة الإفطار فى الفسحة الصغيرة ـ وهو مطعم يسع كل التلاميذ معا، وعددهم نحو السبعمائة. كم كانت المصروفات مقابل ذلك كله؟ عشرين جنيها!.

وما علاقة ذلك بالسجون والشنق والخنق؟.

على يد الأستاذ الشيخ أحمد ـ رحمه الله ـ تعلَّمنا، وحفظنا وتذوقنا حلاوة أول قصيدة من الشعر، فى بداية المرحلة الابتدائية!. ولم تمح الأيام والسنين من الذاكرة كثيرا من أبياتها، ولا مشهد الأستاذ الشيخ وهو يشرح المعنى، ويفسر الكلمات، ويتغنى بالأبيات ويبهرنا ـ نحن الصغار ـ بأشياء نسمعها ونتأثر بها لأول مرة: كالبيت، والشطرة، والقافية، وموسيقى النظم، وإبداع المعانى والصور.. ثم نردد ما يقول، ونقلد ما يُلقى، ونعود فرحين إلى البيت «نختال» أمام الأهل بإنشاد القصيدة، وتقليد المعلم المربى فى الإلقاء، والوقفات والإشارات.. فلما كبرنا فى السن، وكبرت معه معارفنا، علمنا أن هذه القصيدة بعينها يعتبرها أساتذة الأدب والشعر «من أعظم المراثى، ولم يسمع بمثلها»، ولها قصة.

كانت المنازعات والحروب بين الملوك والأمراء والولاة فى أرجاء الدولة الإسلامية الواسعة شرقا وغربا، لا تكاد تخمد أو تهدأ ـ للأسف ـ حتى بين أبناء الأسرة الواحدة الحاكمة، والأسباب كثيرة.. لا مجال هنا للحديث عنها، إلا أن عواقبها دائما كانت سيئة مهينة.

فى عام ٢٣٨هـ، كانت الحرب قائمة فى المشرق الإسلامى بين الأمير عز

الدولة، وابن عمه الأمير عضد الدولة. وكان لعز الدولة وزير يدعى: أبو طاهر محمد بن بقية، فظفر عضد الدولة بهذا الوزير، فألقاه إلى الأفيال، فقتلته. ولم يكتف بذلك... بل صلبه، إمعانا فى التشفى، (وهذا كله ليس من الإسلام فى شىء، بل إنه ينهى عنه، ويحرمه). وكان عُمر الوزير حينذاك بضعًا وخمسين سنة.

حزن عليه صديقه أبو الحسن الأنبارى فى بغداد، ونظم هذه القصيدة العجيبة، التى قلب بها مقصد عضد الدولة رأساً على عَقب، ونقل مشهد الوزير المطلوب من بشاعة الهزيمة والقتل والإهانة بعد الموت، إلى مشهد مبهر من البطولة والكبرياء والكرم والسمو.. حتى أن عضد الدولة ـ الذى قتله وصلبه ـ لما سمعها؛ تمنى «أن لو كان هو المصلوب، وقيلت فيه تلك القصيدة».. يقول الأنبارى مخاطبا أبا طاهر:

علو فى الحياة وفى الممات؟ لحق تلك إحدى المعجزات
كأن الناس حولك حين قاموا وفود نداك أيام الصلات[1]
كأنك واقف فيهم خطيبا وكلهم قيام للصلاة
مددت يديك نحوهم احتفاء كمدهما إليهم بالهبات
ولما ضاق بطن الأرض عن أن يَضُم علاك من بعد الوفاة
أصاروا الجو قبرك واستعاضوا عن الأكفان ثوب السافيات[2]
لعظَمك فى النفوس تَبيت ترعى بحراس وحفاظ ثِقات[3]
وتوقَد حولك النيران ليلا كذلك كنت أيام الحياة
وتلك قضية فيها تأسٍّ تباعد عنك تعبير العِداة[4]

(١) نداك: عطائك وكرمك ـ الصلات: الوصل بالجود والسخاء.
(٢) أصاروا: جعلوا ـ السافيات: الريح التى تسفى التراب، وتذروه، أى: تنشره.
(٣) يشير إلى الحراس من جنود عضد الدولة الذين يمنعون أحدا من إنزاله أو اختطاف جثمانه.
(٤) تأسى: تعزى ومواساة ـ العداة: الأعداء.



obeikandi.com

رَكِبتَ مطية من قبل زيد | علاها فى السنين الماضيات[١]
ولم أر قبل جِذْعك قَط جذعا | تمكّن من عناق المُكْرَمات[٢]
أسأت إلى النوائب، فاستثارت | فأنت قتيلُ ثأر النائبات[٣]
وكنتَ تُجيرنا من صرْف دهر | فعاد مطالبا لك بالتِّرات
وصَيَّر دهرك الإحسان فيه | إلينا من عظيم السيئات
وكنت لمعشر سعدا فلما | مضيتَ تفرقوا بالمحسنات
عليك باطن لك فى فؤادى | يجفَّف بالدموع الجاريات[٤]
ولو أنى قَدرت على قيام | بفرضك والحقوق الواجبات:
ملأتُ الأرض من نظم القوافى | ونُحْت بها خلاف النائحات
ولكنى أُصَبِّر عنك نفسى | مخافة أن أُعَد من الجناة
ومالك تُربة فأقول تُسقَى | لأنك نَصْب هَطْل الهاطلات[٥]
عليك تحية الرحمن تَتْرى | برحَمَات غَوادٍ رائحات[٦]

(١) مطية: دابة للركوب.

(٢) جعل الشاعر عمود الصلب كالمكرمات (بفتح الراء). أى أفضل أنواع الخيل، فهو جالس على أعناقها، أو هو يعانقها بكل جسمه.

(٣) إنه يبرئ القتيل من كل عيب، أو عمل مشين، لأنه كان يكافح المصائب والشرور، فثارت هذه لنفسها فقتلته.

(٤) إن الدموع التى تبلل عادة تجفف هنا نزيف القلب وتبرد حرقته.

(٥) تربة: قبر ـ تسقى: أى بالدموع ـ نصب: قائم منتصب ـ هطل الهاطلات: معرض لغسيل الأمطار.

(٦) تترى: (بفتح الراء) أى تتنزل متتابعة مستمرة ـ غداة: آتية.

# صاحبة العيون الجريئة

رحم الله أخى فى العروبة والوطن (عبد الحليم حافظ)، وغفر لنا وله. فقد أوْقعنى فى حيرة حين استمعت إلى صوته الشجى الرخيم وهو ينادى أو يناجى «أبو عيون جريئة». وهو بالطبع يقصد «أم عيون جريئة»، وإلا فالمسألة لا تصح ولا تليق..!.

وسبب الحَيرة، أننى توقفت عند وصف العين بأنها «جريئة».. فالجرأة (بضم الجيم) هى الإقدام، والشجاعة الزائدة.. فكيف تُقدم العين وتتشجع؟، ثم إن صح مجازا أو تجاوزا ـ لأن الشجاعة سلوك، أو صفة لإرادة وعزم ـ فهل تدخل فى دائرة الحُسن وجمال العين؟. إن العين ـ فى الأنثى ـ قد يقال لها: جميلة، أو ساحرة (مبالغة فى الجمال الفاتن)، أو جذابة (تعبيرا عن تأثيرها فى النفس، ولفْت النظر)، أو يقال إنها: كحيلة، أو حوراء(شديدة البياض والسواد)، أو ناعسة (فيها حياء ودلال)، والحياء يبرز جمال العين والوجه، وهو من ألزم صفات المرأة، على عكس الجرأة التى هى صنو «البجاحة».. ويقال عين قَريرة (أى: راضية، هانئة، سعيدة)، وعين دامعة، أو دامية، أو متَّقدة (وفى القاموس: دموع السرور باردة، ودموع الحزن حارة...)[1].. وعين منكسرة (إما حياءً، وإما خجلا).. وعين براقة.. وعين ساهرة، وأخرى نائمة.. وعين تنظر شذراً (أى النظر بمؤخر العين، تعبيرا عن الإعراض، أو البغض، أو الاستياء).. كقول النابغة يصف عيونا:

ينظُرن شذراً إلى من جاء من عرض  بأوجه منكرات الرِّق أحرار

(١) وبعد ألف سنة.. يؤكد لنا علماء اليوم الأجلاء أن عناصر ومكونات دموع الفرح تختلف بعض الشىء عن مكونات وعناصر دموع الحزن!.

أما «العيون الجريئة».. هل تعنى مخيفة؟ سخيفة؟ خبيثة؟ متبجحة؟.. إنه أمر محير.. وهل نقول أيضا: أنف شجاع، أو متهور؟.. لندَع ما يحير إلى ما يُدهش..

هذه سيدة جريئة.. حقا جريئة.. ليست بالعيون، أو الحواجب، أو الشفاة.. وإنما بالإرادة، والعزيمة، والفعل.. وباسم الحب.. نعم.. والحب ـ كما قالوا ـ يصنع معجزات.. لكن ما صنعته «نادين فوجور»، ليس معجزة، وإنما مغامرة جريئة تفوق خيال الحكايات، والأغانى، والمسلسلات. إنها أحبت، فتزوجت، فسعدت، فأنجبت. وعاشت سنوات قلائل فى نشوة حب الزوج «ميشيل»، الذى غمر قلبها وعقلها بالعاطفة الملتهبة، وملأ جيوبها بالنقود.. المسروقة..

قديما ـ كما فى الحكايات ـ كان العاشق الولهان يقف ليلا تحت نافذة الحبيبة الأثيرة حبيسة البيت، يغنى لها، ويدندن حتى تخرج إليه، فيخطفها، وينطلق بها فوق حصان أبيض، لينعما سويا بالحب والعيش فى هناء.. فإن كان بدويا، وقف على باب خيمتها فى الصحراء الجرداء، وصاح ينشدها قصيدة عصماء، فإما أن تخرج ويظفر بها، أو يفاجأ بخروج أبيها ليقول له ثائرا زاجرا:

«جئت تطلب نارا، أم جئت تشعل الخيمة نارا؟!».

اليوم ـ وكما حدث ـ الزوجة العاشقة هى التى «تخطف» زوجها حبيس السجن، تحلِّق فوقه بطائرة هيليكوبتر، فيصعد إليها، فتنتشله، وتنطلق به فى صحوة النهار، وعلى رؤوس الأشهاد.. والحراس..

كيف؟.

إن «ميشيل» محكوم عليه بالسجن لسنوات طويلة فى عدة قضايا سرقة، وبالإكراه. وهو إذ حاول الهروب من السجن أكثر من مرة، فقد وُضع تحت رقابة مشددة، وينقل باستمرار من سجن عتيد إلى سجن حصين، حتى لا

يَهْرب، أو يُهَرَّب. ولما كان فى غرامه وسجنه وهروبه ما يثير وما يستحق أن يُروى ـ رغم إجرامه، ورغم «تجريم» مغامرة زوجته ـ فقد أصدرت «نادين» كتابا بعنوان «ابنة الهواء»، لقى رواجا لسببين رئيسيين: لأن أساس المغامرة هو «عاطفة الحب»، وليس أسلوب الاختطاف ذاته، وإن كان فيه جرأة وغرابة، خاصة من سيدة. والسبب الثانى: أن الناس ـ عادة ـ لا يتصورون أن «الحب» الحقيقى الخالص يدخل فى دائرة أو محيط الجريمة والمجرمين، فيكون من العسير على البعض أن يفصل بين الجانب الإنسانى الفطرى، والسلوك المرذول المكتَسب، وأنهم يأخذون المذنب ومن حوله بالتجريم.

هذه بعض جوانب المغامرة الجريئة فى سطور، كما روتها نادين فوجور..

ـ كيف المفر؟..

هكذا سألنى زوجى بغيظ وحسرة عند زيارته بالسجن، بعد أن أُخْبِرتُ أنه لا يستقر فترة طويلة فى مكان واحد، لنقله بانتظام من سجن إلى آخر. من هنا كانت فكرة استخدام الهواء الجوى، بدلا من الاختطاف الأرضى.

ذات يوم.. وقع بصرى على عنوان أصفر اللون فى أسفل مجلة أسبوعية، مكتوب فيه بخط كبير واضح: «أسرع لكى تصبح طيار هيليكوبتر». توقفت نظرتى طويلا عند هذا الإعلان، قرأتُه عشرات المرات، وقفزت إلى ذهنى فكرة: لماذا لا تكون هذه هى الوسيلة التى يهرب بها ميشيل؟ لماذا لا أتدرب أنا، لأتولى قيادة الطائرة بنفسى؟..

وداخلنى الخوف: كيف أجرؤ على قيادة شىء يطير، وطائرة مروحية (هيليكوبتر)، وأنا التى لا أستطيع تغيير عجلة سيارة؟!، أنا التى أُصاب بالدوار إذا استخدمتُ المصعد إلى الأدوار العالية؟!. إنها فكرة طائشة صعبة التحقيق.. ومع ذلك.. ظلت تطاردنى، وتشغل ذهنى ليل نهار، حتى أمسكتُ بالتليفون، واتصلتُ بمطار الطائرات المروحية خارج العاصمة باريس. بعد يومين استقبلنى بالمطار أحد الطيارين. إنه فى نحو الأربعين، قوى البنية،

يتكلم بثقة الخبير بمهنته، وله ابتسامة توحى بالاطمئنان، تدل على حسن تعامله المستمر مع الناس. طرحتُ عليه بعض الأسئلة، فأجاب عنها ببشاشة.

ولكن من خلال حديثه وإيقاع صوته، أحسست أنه فى قرارة نفسه يظن أننى غير جادة فى رغبتى أن أتعلم وأتدرب. أفهمنى أنه لكى أصبح ملّاحة جوية أقود طائرة هيليكوبتر، لابد من إحضار أربع صور شخصية، وصحيفة الحالة المدنية (خالية من أحكام جنائية سابقة)، وإجراء كشف طبى دقيق، والتدريب الجوى لمدة أربعين ساعة على الأقل، والنجاح فى امتحان تحريرى لبعض المواد، ثم نصحنى فى النهاية بقراءة مجموعة من الكتب، تتناول موضوعات عن الطيران والملاحة الجوية، فإذا راقت لى فكرة هذه المغامرة بقيادة الهيليكوبتر، فإنه ينتظر عودتى إليه بعد اتخاذ القرار.

فى مساء اليوم نفسه، اشتريت مجموعة الكتب التى دون لى قائمة بأسمائها. سهرت معها معظم الليل. وفى الصباح التالى بدأت فى إعداد الأوراق الرسمية المطلوبة للالتحاق بالتدريب. وبعد يومين اثنين أخذت طريقى مرة أخرى إلى المطار. كان القائد الذى قابلته فى المرة السابقة غائبا. قابلنى ملّاح هيليكوبتر آخر، أصغر منه سنا. حاولت أن أغير قليلا من شخصيتى وسلوكى: أن أبدو فى مظهر الفتاة المرفهة المدللة الأنيقة التى لا تهتم بالمال، المتحررة من الكبت والقيود النفسية، والتى تستمتع بكل ساعات حياتها.. وقلت له:

ـ لا يجب الاتصال بى فى البيت، لأن والداى سينزعجان كثيرا ـ رغم حبهما الشديد لى، وتدليلهما ـ إذا علما أننى سأغامر بالدخول فى هذه التجربة.

ابتسم الطيار الشاب باقتضاب، ثم سألنى عما إذا كنت مارست القيادة من قبل..

ـ لا . .

ـ مطلقا؟ . .

ـ مطلقا .

ـ ولا طائرة أخرى؟ .

ـ أبدا . . إننى مبتدئة . ولكن، لماذا؟ هل هذا يعنى مشكلة؟ .

ـ لا . . لكنك تدهشيننى . . أولا : لأن الذين يبدأون معنا يكون معهم عادة شهادة ممارسة الطيران . وثانيا : لأنه نادرا ما تأتينا فتاة أو سيدة تريد التدريب على قيادة هيليكوبتر . .

أجبته فى لهجة جادة، وبكل ثقة :

ـ أنا شخصيا لم أفكر فى ذلك من قبل . . إننى فجأة سألت نفسى : إذا كنت أُجيد ركوب الخيل، وقيادة اليخت (وهذا طبعا غير صحيح) والسيارة والدراجة البخارية (الموتوسيكل)، فلماذا لا تكون أيضا الهيليكوبتر، وأزور مناطق عديدة، فأستمتع بالمشاهدة من الفضاء؟ .

هز الرجل كتفيه إعجابا، أو شكا، أو دهشة، لست أدرى . . ثم طلب منى أن أصحبه، فمررنا بعدد من المكاتب، وطرقات أفضت بنا فى النهاية إلى عنبر (حظيرة) يعمل بها ميكانيكيان، ثم خرجنا إلى ممر تربض فى طرفه طائرة هيليكوبتر صغيرة بيضاء اللون، وطائرة أخرى مختلفة الشكل قليلا خلفه .

ـ سأريك الآن «الُويت ـ ٢»، و «بِل ـ ٤٧» .

اقترب من الطائرة وأنا أتبعه . درنا حولها . إنها أول مرة أرى فيها هيليكوبتر عن قرب . وأخذ هو يشرح لى الأجزاء الرئيسية : جسمها، المحرك، سارية المروحة العلوية، الذيل بأجزائه، الأسلاك . . . . ثم طلب منى الصعود إلى مقصورة القيادة، قائلا :

ـ إنه وقت نموذجى للاحتفال باقتحامك الفضاء . . انظرى إلى السماء

الصحو الصافية.. (لكننى فجأة شعرت بالفزع، وتخلت عنى ثقتى بنفسى).

- ولكن.. لم أستعد نفسيا لذلك.. كما أننى أخشى أن أتأخر عن ارتباطاتى.

- لا تخافى، فلن نستغرق أكثر من عشر دقائق.

- وأظن أن النقود التى معى الآن لا تكفى..

- لا ضير.. ادفعى فى المرة القادمة. هيا.. هيا اربطى حزام المقعد من فضلك.

تناولت الأربطة بحذر، ولم أُحكم - لجهلى - ربط حزام الوسط، ثم ناولنى غطاء الرأس، وبه سماعة صوتية، وتكلم لكى أسمع من جهاز اللاسلكى المتصل بسمَّاعة الخوذة:

- واحد.. اثنان.. ثلاثة.. هل تسمعيننى جيدا؟.

هززت رأسى، علامة على الإيجاب.

- إذنْ سوف نُقْلع..

بمجرد أن ارتفعت الهيليكوبتر عن أرض المطار، شعرت أن جسمى يهتز، وتكاد قدماى تنفصلان عنى. وتحولت المناظر من حولى إلى صور مُبهمة، وأنا أتذوق لأول مرة (طعم) المغامرة، أو طعم الهواء الذى سوف أخترقه.

فى زيارتى التالية لميشيل فى السجن، لم يصدق، أو لعله لم يفهم ما أخبرته به عن التدريب... فمن خلال الحاجز الزجاجى الفاصل بيننا، سألنى بالإشارة، بعد أن ظل صامتا متحيرا لبضع ثوان:

- من ذا الذى سيكون ملاح هيليكوبتر؟.

أشرت إليه، وأنا أضرب يدى على صدرى، وأهمس بشفتىَ: أنا..

انتظمت فى التدريب ليومين كل أسبوع. تآلفتُ شيئا فشيئا مع الطائرة. لم

تعد لوحة القيادة بمفاتيحها ومؤشراتها وأجهزتها سرا مرعبا كما كانت فى البداية. عرفت كل شيء بالتفصيل. إنها شديدة الحساسية، والتعامل معها يحتاج إلى مجرد اللمس بوعى ودقة، وإلا حدثت مشاكل، وربما كارثة.

لم يكن التدريب سهلا فى مراحلة الأولى. أعصابى دائما مشدودة، والرعب يغْمرنى وأنا أنظر إلى المؤشرات والأرقام العديدة التى تتحرك أمامى؛ فأفقد التوازن الصحيح.. ويالليهول عند الإقلاع وعند الهبوط. وبعد الهبوط دائما كنت أشعر بالغثيان، وأننى على وشك التقيؤ.. لكننى فى كل تدريب جديد، حرصت على أن أكون واعية بالأخطاء السابقة،وأصححها فى هذه المرة. وتنشأ مشاكل جديدة، وأخطاء جديدة، فأعود إلى البيت، وأخلو إلى نفسى بعد نوم طفلاى، وأنفرد بكتاب «المرشد التعليمى للطيار الخاص».

بعد الانتهاء من نحو خمس عشرة «حصة» تدريبية، أخبرتُ ميشيل فى زيارة أننى الآن أقترب من إجادة القيادة، لكن «مهمتى» التى من أجلها اقتحمت هذا المجال الغريب، تتطلب، ليس فقط الإجادة، وإنما أكثر من ذلك.. الامتياز المتكامل والمتفوق، تحسبا لمواجهة أية ظروف طارئة فى فناء السجن عند الهبوط، ثم الإقلاع، أو أثناء الهرب بالطائرة ومعى ميشيل.

عند مرحلة معينة من التدريب، لابد من وقفة للمتدرب مع نفسه، ليسألها قبل أن يتخذ قراره النهائى الحاسم: هل يواصل حتى النهاية، أم يكتفى ويعود بسلام من حيث أتى؟... إننى أمارس شئون حياتى على نحو هادئ جيد، وأؤدى واجباتى كأم أفضل ما يجب أن تكون. وزياراتى لزوجى المحبوب منتظمة، وبلا متاعب.. ثم هذه المغامرة التدريبية بالطائرة المروحية، تمضى سلسة بلا مشاكل، فلماذا أتوقف؟ وكيف أتراجع عن تحقيق الهدف، رغم مخاطره؟!.

بعد أن حلقنا فوق المطار أكثر من خمسين مرة، قال لى مدربى الشاب، بعد أن توقفت دعامات الطائرة فوق حشائش أرضية المهبط:

- الآن أصبح الأمر كله فى يدك.. سأتركك فى الطائرة، لتؤدى أنتِ وحدك دورة كاملة فوق المطار، ثم تهبطى بسلام..

قبل أن أُجيب على هذا الاقتراح المهيب المفاجئ، فتح الباب جهة اليسار، وقبْل أن يقفز إلى الأرض، وضع مكانه على مقعده بطارية كبيرة الحجم، ليساعد ثقلها على حفظ التوازن مع وزن جسمى الخفيف. وانصرف قبل أن يسمع رأيى بالقبول أو الرفض، وجرى بعيدا عن مجال دوران أذرع المروحة.. إن المحرك مازال يعمل، وصوته الصاخب يهز جسم الطائرة. بعد لحظات، احتكَّت الدعامات السفلية بحشائش الأرضية، إيذانا بالإقلاع.

تسبب اضطرابى فى عدم التحكم جيدا فى التشغيل، فأقلعت الطائرة تقريبا من تلقاء نفسها، إذ كان دورى ثانويا، مكتفية بالخطوات العامة.. التحويل للأمام، نقل السرعة، الوضع للارتفاع.. قفزت طائرتى الـ «بل» وكأنها تنفر غاضبة معترضة. كان لابد من إحكام السيطرة فى المناورة بالصعود، لكن يبدو أن الطائرة مقتنعة بأنها كفرس من غير فارس.. سرعة الارتفاع أربعون عقدة؟.. ثم ها هى تقفز إلى ستين.. الدوران الأول.. الوضع منبسط.. ثم الدوران الثانى.. الارتفاع أعلى كثيرا مما يجب، والسرعة أكبر كثيرا مما ينبغى.. وحدثَتْنى نفسى: مَن منا نحن الاثنين، الهيليكوبتر أم أنا، الذى يتولى المناورة والتشغيل.. ثم راودنى خاطر: ماذا لو اتجهت الآن إلى سجن «سانتيه» الحصين العتيد (حيث يوجد ميشيل)؟.

وأخيرا، لمستُ بالطائرة الأرض. وسرعان ما أقبل مدربى يقفز إلى الطائرة، ثم يفتح الباب وهو يصرخ بصوت يعلو على صوت المحرك:

- برافو.. فى القريب العاجل ستصبحين ملاحة رائعة.

بعد ذلك كان التدريب الميكانيكى، لمعرفة عمل وصيانة كل الأجزاء الآلية.. الكل يرحب بى، ويعلمنى بإتقان، وبروح طيبة، عدا رئيس الشركة، الذى يعتقد أن وجود امرأة على مقعد قيادة هيليكوبتر تماما كوجود بعوضة داخل علبة كافيار.

ثم دخلتُ فى المرحلة التالية: التعرف على الأماكن من الجو. فى عصر يوم من التدريب، تفحصْت جيدا المبانى المحيطة بسجن «سانتيه». إنها تتكون من خمس أو ست وحدات منفصلة، بارتفاع عشرة طوابق لكل منها. ثلاثة منها متوازية مع بناية السجن، ولا أهمية لها بالنسبة لى. اقتربت من الوحدات الداخلية: إنها عمودية، وتبعد نحو خمسين مترا عن هدفى. هبطتُ بالطائرة فوق السجن، إلى ارتفاع الدور السادس من المبانى المجاورة، وشاهدت تحتى مباشرة الفناء الداخلى الذى اختاره ميشيل موقعا «لاختطافه».

أمضيت دقائق طويلة، وأنا أرقب جيدا تفاصيل الموقع: البوابات، والأسوار، والحوائط الطوبية ذات اللون الأحمر كالدم، المدخنتين الكبيرتين المنتصبتين نحو السماء كالمدفعين، وأبراج المراقبة. تأملت ذلك فى حرص شديد على تسجيل الصور وتفاصيلها فى الذاكرة، حتى تصبح جزءا لا ينفصل عن مخيلتى. بعد عدة دورات هادئة فوق الموقع، وفى ارتفاعات مختلفة، شعرت أننى أنجزت مهمة مرهقة صعبة.

انتقل التدريب بعد ذلك إلى الطائرة «ألُوِيت ـ ٢»، ومحركها التوربينى أقوى وأنسب للهدف الذى أسعى إليه، وقيادتها أكثر نعومة وسلاسة من الطائرة الأولى. وبالضرورة.. تكاليف التدريب عليها تزيد كثيرا.

إن ساعة التدريب الواحدة تتكلف ١٢٠٠ فرنك (نحو ٧٥٠ج.م)، فكان لا بديل عن بيع بضائع متجرى «١٠٠٠ صنف» بأى ثمن. بعضها بيع جملة لمخزن فى باريس، والباقى لمتجر فى «سوق الكانتو» المعروف بأسعاره الرخيصة. وذهبتْ حصيلة البيع كلها إلى تغطية نفقات التدريب. لا ضير.. فقد أسعدنى الحظ بانتهاء التدريب بعد خمسة أشهر متوالية، ثم انتقلتُ إلى مطار آخر لتحسين القيادة والخبرة. وبعد مضى عام، حصلت على شهادة (رخصة) قيادة طائرة هيليكوبتر.

فى يوليو ١٩٨٥، بعد عديد من التنقلات بين السجون، عاد ميشيل إلى

«سانتيه». بعد أربعة أشهر من الزيارات المتتابعة، انتهينا ـ سرا ـ إلى وضع خطة الهروب بالتفصيل والمراجعة، وحفظناها جيدا.

وعلى الرغم من حرصى الشديد على تهريب زوجى بمفردى، إلا أننا معا وجدنا من الضرورة الاستعانة بشخص ثالث: فإننى سأكون مشغولة اليدين والعينين والقدمين فى قيادة الطائرة، فيكون من المستحيل أن أُدلى له الحبل المزدوج، الذى سيصعد بسرعة عليه (كالسلم)، ويدلف إلى داخل الطائرة. اقترح ميشيل بعض الأسماء الصديقة، ولكن لكل منهم مشكلته... فكان لا مفر من الانتظار طوال الشتاء، ثم الربيع، حتى جاء أخيرا صديقه «دانيل».

كانت خطة ميشيل بسيطة للغاية، على الأقل فوق الورق: تقتضى أن يتم الهرب فى ساعة الفسحة، بين ٩,٤٥، و١٠,٤٥ صباحا، فى فناء السجن، بإدلاء أداة الصعود، من الطائرة الهيليكوبتر. وفناء الفسحة يقع بين مبنى الجناح الأول والثالث، المتصلين معا من أعلى بجسر (كوبرى). وكان من المتفق عليه أن يتسلق إلى سطح المبنى المائل المغطى بالقرميد الأحمر، فيتلقف الحبل السلم المتدلى الذى يصعد به إلى الطائرة.

أخطر مراحل الخطة تكمن فى المنطقة التى سيتسلقها من الجسر إلى السطح، إذ ربما يشاهده جندى الحراسة الواقف فى برج المراقبة. من باب الحيطة سنلقى إليه من الطائرة أدوات تساعده على الانتقال السريع عبر الواجهة من نافذة حديدية من نوافذ الزنزانات إلى نافذة: حبل سميك ينتهى بخطاف يتشبث بإحكام فى سياج النافذة، وعصا صيد متداخلة الأجزاء، تنفرد إلى مترين ونصف، لاستخدامها فى رفع الحبل عاليا بطول المسافة بين الطوابق. المهم، العمل بسرعة فائقة، إذ بالرغم من اختيارنا لزاوية بين المبنيين، بعيدة عن الرؤية المباشرة من الداخل نسبيا، إلا أن اثنين على الأقل من الحراس الأربعة بالأبراج سيشاهدان اقتراب الهيليكوبتر.

اتفقنا على أن تكون المدخنة الحديدية البيضاء البارزة من أعلى السطح، هى نقطة اللقاء، لكننى خشيت على ميشيل:

ـ إن السطح مغطى بطبقة من قطع الزجاج المدببة الحادة والخطرة.

ـ توجد دعامة معدنية، سأمشى بحرص فوقها.

ـ وإذا انزلقت؟.

ـ سأسقط إلى الأرض.. ثم نظر إلىّ مبتسما، وقال: لا تخافى، فلن أسقط.

قضيت أياما طويلة أستكشف وحدى معالم المنطقة المحيطة بالسجن، سيرا على الأقدام، وأمضيت ساعات لعدة أيام فى المدينة الجامعية القريبة، التى قررت أن أهبط فيها، ومعى ميشيل. وبينما كنت أفحص حديقة المدينة الجامعية وما حولها، اكتشفتُ معبرا ضيقا يُفضى إلى الطريق الدائرى السريع. مشيت فيه أستطلعه، فوجدته يؤدى إلى طريق يعود إلى باريس، أو الاختفاء فى الضواحى. فى جانب منه يمكن وضع سيارة، وبعد مسافة غير بعيدة.. سيارة أخرى للانتقال من الأولى إلى الثانية، للتشويش على المطاردين، وبعد ذلك تصير الأمور إلى الحظ الحسن، أو.....

عندما اقترب موعد التنفيذ ـ بعد فترة انطويت فيها على نفسى ـ قررت أن أصحب معى «دانيل»، ليشاهد مثلى من أعلى المواقع، ويرصدها جيدا عن قرب.

ـ انظر جيدا إلى هذا الرافع (الونش) البرتقالى اللون، وأيضا تلك المدخنة الحديدية البيضاء. إنها معْلَمنا المتفق عليه.

ـ يجب أن ننفذ الخطة يوم أحد.. ففى هذا اليوم تقل الحركة، ويكون حراس الأبراج أقل تحفزا.

ـ وأقل عددا....

وتم الاتفاق على يوم التنفيذ: ١١ مايو، ثم تأجل اضطرارا إلى يوم ٢٦ مايو ١٩٨٦. كان ميشيل مستعدا ومتهيئا.. فهو مواظب على تدريبات رياضية منذ أسابيع، لإعداد جسمه، وأعاد مرارا التمرين على الحركات والأوضاع التى

سيمارسها يوم الصفر. وفى رسالة تلقيتها منه بأسلوب كله تورية لا يفهمها غيرى، أشار إلى شىء لم نضعه فى الخطة، ولم يسبق لنا الكلام عنه: الأسلحة. إنه يقترح أسلحة خفيفة، لكننى رفضت ـ فى البداية ـ الفكرة من أساسها.

بعد مناقشة طويلة، بالإشارة والتعبير بالأيدى والشفاة (مثل البانتوميم) أثناء الزيارات بالسجن، اتفقنا على أن يكون بالهيليكوبتر ـ للطوارئ ـ مدفع صغير رشاش، وفى الحقيبة التى ستُلقى إليه فى الفناء وبها الحبال والأدوات الأساسية البسيطة، مسدس صغير.

وبقِيتْ مسألة: كيف يعرف الطرفان (نادين وميشيل) أن كلا منهما بدأ يتخذ موقعه، وشرع فى التنفيذ فى اللحظة المتفق عليها؟، بمعنى: كيف يعرف ميشيل أن زوجته بدأت تنفيذ الخطة فى الموعد المحدد، وهى فى طريقها إليه، وكيف تتعرف نادين ـ الزوجة ـ على ميشيل من بين الموجودين فى الفناء بالسجن وهى فى الجو، وأنه حاضر بالفعل، وليس غائبا لسبب ما؟.

تطلب ذلك ثلاثة ترتيبات: أولا، زيارة ميشيل بالسجن يوم الجمعة السابق مباشرة على تنفيذ الخطة، لأن وجوده بالسجن فى هذا اليوم معناه أنه لن يُرَحَّل إلى سجن آخر ـ إن تقرر ذلك ـ إلا بعد يومى العطلة، أى بعد يوم الأحد (يوم التنفيذ). ثانيا: أن يرتدى ميشيل صباح ذلك اليوم للخروج فى فترة الرياضة الصباحية زيا مميزا (أحمر مقلم بأزرق، وشرابا مميزا أيضا). ثالثا: الاستعانة «بسنِّيد»، أى شخص مساعد تم اختياره لمهمته كالآتى: أن يقف فى شرفة صديقه بالدور السادس بالعمارة المواجهة لفناء السجن، وعندما يشاهد ميشيل بزيه المميز فى الفناء، يتصل فورا بنادين تليفونيا بالمطار، ويبلغها «بكلمة السر»أى الرمز المتفق عليه، فتقلع بالطائرة ومعها دانيل، وبعدها يعطى «السنيد» إشارة بمنديل أحمر اللون، يفهم منه ميشيل أن «الموكب» قد تحرك..

تقول:

وجاء يوم التنفيذ: ٢٦ مايو..

ارتعاشة الرهبة فى الصباح الباكر، ونشوة تخيل الفوز، وحلاوته، ورِعْدة الخوف من الفشل وعواقبه. أعددت جيدا الحقائب المطلوبة، وتحت زى ملاح الطائرة لبست رداء نسائيا وردى اللون، وأنا أرتجف قليلا من الخوف وعدم التركيز. وفى الحمام، بللت شعر رأسى، وجمعته بعناية ملفوفا تحت غطاء الرأس (بيريه الطيار)، ولم أضع مساحيق زينة (ماكياج)، فبدوت كأننى رجل، وهذا هو المطلوب. فى السابعة تماما، دق جرس الباب. إنه دانيل:

ـ جاهزة؟.

ـ هيا بنا..

توجهنا أولا إلى المدينة الجامعية، للتأكد من أن السيارة التى وضعناها بالقرب منها بالأمس مازالت فى مكانها. قطعنا الطريق فى صمت.. نظراتنا معلقة بالمسار، وأفكارنا لا تكف عن الحوار، وكلها عندى تدور حول الهيليكوبتر، والرداء الأحمر المخطط، وميشيل.

انعطفنا بالسيارة للدخول فى الطريق السريع الغربى. وطوال المسافة من البيت إلى المطار، لم نتبادل سوى بضع كلمات. من المؤكد أن دانيل يحسب الدقائق، وهو يدرك تماما أننى أعد الثوانى..

عندما خرجت من نفق «سان كلو» طالعتنا السماء بزرقة جميلة، وصفاء رائع. إنه فأل حسن، ولكن على أرضية الطريق تبدو بوضوح بقع داكنة. قلت لدانيل:

ـ هل تعرف أن السماء فى الربيع أقل صفاءً منها فى الشتاء؟.

لم يجب.. فقلت:

ـ بسبب غبار التلوث..



obeikandl.com

قاطعنى قائلا فى حزم، دون أن يلتفت نحوى:

- أسرعى. الوقت يجرى..

عندما وصلنا إلى بوابة المطار، كانت الساعة العاشرة تماما. نزلتُ مسرعة من السيارة، وقلبى يكاد يقفز إلى حلقومى، وهو يرقص من الفرحة. لا أستقر على حال، أو فى مكان. أسرعت إلى مقصورة (كابينة) التليفون. انتظرت فى لهفة.. عشر ثوان، عشرون، ثلاثون ثانية.. دق الجرس. التقطت السماعة. إنه هو... المساعد المراقب (الناضورجى) بالطابق السادس:

- ألو؟

- إنه هناك.

- ونحن هنا أيضا. إننا متأخرون خمس دقائق، ولكن كل شىء سيمضى بسهولة، ثم خاطبت دانيل:

- هيا سريعا إلى المرْبض.

- لكننى لا أرى الألويت (الهيليكوبتر).

تلفتُّ أبحث بنظرات مضطربة. لا أراها..

أحسست أن العرق يسيل بغزارة بطول ظهرى. جريت.. قابلت طيارًا شابا، سبق أن تعارفنا. تصنعت الهدوء والسيطرة على مشاعرى القلقة.. وأنا أسأله:

- هل المدير فى مكتبه؟

- لم يصل بعد..

- هذا محير.. فالمفروض أننى سأطير اليوم.

- أنا أعلم ذلك.. فأنت موضوعة على الجدول. وإذا أردت، يمكنك التوجه مباشرة إلى الهيليكو (اختصار هيليكوبتر). إنها فى الحظيرة (الهانجر).

- فى الحظيرة؟.. هلا تكرمت بمساعدتى؟..



obeikandl.com

هز رأسه مبتسما، ثم تقدمنى. فى الحظيرة شاهدت ثلاثة ميكانيكيين يدورون متفحصين حول الطائرات. ساعدونا فى دفع الألويت إلى الخارج.

لمحت دانيل ـ الذى كان منتظرا خارج الحظيرة ـ يقف ضجرا مستاء، وهو يستند إلى سياج حديدى، يخفى عينيه بنظارة كبيرة سوداء. أشار نحوه أحد الرجال الثلاثة قائلا:

ـ هل سيصاحبك هذا؟..

لم أفهم القصد من السؤال المباغت، فأسرعت بتحويل الإجابة إلى دعابة:

ـ إنه يظن أن باقترابه من الشمس بالطيران معى سيتحول إلى اللون البرونزى.

وبإشارة طبيعية.. ناديتُ دانيل، بدون ذكر اسمه، لكى يعاوننا فى دفع الطائرة.. فاقترب من ذيلها، ودفعها بكوعه، وكأنه غير مكترث.. فقال أحد الرجال فى دهشة:

ـ أهو خائف أن يبدد «طاقته»، أم ماذا؟!.

كيف أشرح لهذا الميكانيكى أن دانيل قوى متين، لكنه حريص على ألا يترك أى بصمات على الطائرة؟.. جربوا تشغيل اللاسلكى، لكنه كان معطلا.

حاولت التخلص من الطيار الشاب، بعد أن انتهت خدمته «الأخوية».

ـ إن الوقت يضيع، وساعة طيرانى بدأت بالفعل منذ قليل.

ـ هل ستطيرين فوق باريس؟

ـ نعم.

ـ لأمر ضرورى؟.

ـ أبدا.. أبدا..

حاولت أن أرسم على وجهى ابتسامة، وقد نفد صبرى. إذا لم نقلع خلال خمس دقائق، فالخطة بالقطع ستفشل..

- لا يهم.. لن نطير فوق باريس..

- إذا ظللت فوق منطقة المطار يكون أفضل لك.

- شكرا.. إلى لقاء قريب.

ما إن أغلقت باب الهيليكو،حتى بدأت فورا فى تشغيلها، ولما تأكدت من انضباط أجزائها، وأجهزتها، واتزانها، تهيأت للإقلاع، مع حرصى الشديد على تعويض الوقت الضائع. بذلت كل جهدى للإقلاع والطيران بما أستطيع من مهارة ورشاقة، فمن أجل هذه «الطلعة» تعلمتُ، وتدربتُ، وتعبت،وأنفقت، وربما تكون هذه آخر مرة أقود فيها طائرة..

حلقنا فوق الحقول. تبينت بسهولة معالم الطريق السريع. اختلطت أفكارى ومشاعرى عندما جال بخاطرى سؤال مخيف: ماذا لو فشلْت؟. لأول مرة يتملكنى الرعب، لكن النظر إلى نهر السين هدأنى بعض الشىء.. ثم التفكير فى أننى أمضى إلى إنقاذ زوجى.. فبعد ربع ساعة سيكون إلى جوارى، بلا عوائق، ولا حراس، ولا حاجز يفصل بيننا.

اقتربنا من باريس، ها هى تحتنا.

التفتُّ نحو دانيل:

- كم الساعة؟

- تجاوزت العاشرة والنصف.

- حسنا.

حتى الآن، تبدو باريس كلوحة رسام سيريالى، مبهمة المعالم.. ثم شيئا فشيئا أخذتْ تتضح، وتتحد أشكال البنايات ، وألوانها، وكذلك الشوارع. تلفتُّ يمنة ويسرة، أنظر فى كل اتجاه، وأفحص المواقع، ثم توقفت على ارتفاع خمسين مترا من أسطح المبانى. الروافع (الأوناش) منتشرة فى كل مكان: حمراء، وزرقاء، وخضراء.

استدرت نحو دانيل صائحة:

ـ الونش.. دانيل.. ابحث عن الونش.

تحركت بالطائرة فوق البيوت، وضجيجها يصم الأذُن. انتابنى جنون. فى باريس آلاف الأوناش. كيف نميز من بينها الونش الذى نقصده؟. تفرس دانيل من جانبه ووجهه ملتصق بغطاء المقصورة المتكور الشفاف. إنها العاشرة وأربعون دقيقة. بعد خمس دقائق فقط يكون الوقت المتاح قد تبدد. صرخت:

ـ سجن سانتيه. يا إلهى. سانتيه. أهذه محطة قطار أُسْترليتز؟ مستحيل..

انزلقتْ نظراتى تحت الهيليكو. التفت نحو اليسار، وحملقت مذعورة أتفحص المواقع. وفجأة، لمحته عاليا فوق الأوناش الأخرى بلونه البرتقالى..

ـ ها هو..

فى نفس اللحظة لمحه دانيل. اندفعتُ نحوه، وهدير المحرك يَصْخب بشدة. ها هو السجن هناك أمامنا. العاشرة وأربع وأربعون دقيقة. شاهدت كوكبة من رجال الشرطة بزيهم الرسمى. رفع خمسة منهم رؤوسهم، ينظرون نحونا فى دهشة. هذا هو الفناء الرئيسى، الذى طالما عبرتُه مشيا على الأقدام أثناء الزيارات. وأخيرا، الفناء المثلث هدفنا.

هبطتُ إلى ارتفاع خمسة عشر مترا من سطح السجن فى وضع ثابت بالجو. نظرت تحتى، فرأيت على الفور ميشيل بردائه الأحمر المخطط بالأزرق، مميزا عن الآخرين جميعا. وَارَبَ دانيل باب الهيليكو، وألقى بالحقيبة فى الفناء. دار ميشيل حول نفسه، ثم التقطها. وهنا ربت دانيل على كتفى، قائلا:

ـ هيا بنا..

حركت عجلة القيادة نحو ملليمترين، فسارت آلويث ببطء، محافظة على اتزانها.. وراعيتُ ألا تتوغل بعيدا.. تركنا الفناء خلفنا، فإذا ببرج المراقبة، وفيه الحارس إلى يميننا. أمسك دانيل بالمدفع الرشاش م ـ ١٦. تقدمت ببطء نحو سطح بناية الجناح الثالث، وتجاوزت المدخنة الحديدية البيضاء. إننى أحَرصُ ما أكون على تجنب المخاطر والدخول فى مشاكل. فضلت الدوران

١٨٠ درجة إلى اليمين. أحسست كأننى أتحرك بالطائرة فى مساحة منديل الجيب!.

غمرنى فزع رهيب. ها نحن مرة أخرى فى مواجهة فناء المسجونين المعزولين. المدخنة الصغرى. .برج حارس المراقبة الآن على يسارنا. بدا على الرجل الاضطراب. إننا لا نبعد عنه أكثر من عشرين مترا. لاح فى خاطرى أننا ـ بالنسبة له ـ كالفراشة التائهة التى تدور حول مصباح مضىء. تلفَّتَ فى حيرة وارتباك فى كل اتجاه، ثم أمسك بسماعة تليفون،وتكلم، ثم وضعها،ونظر محملقا إلينا. .

اتخذتُ وضعا ثابتا فوق السطح على ارتفاع خمسة أمتار منه، لكن كان من العسير علىَّ التحكم فى الثبات، فالطائرة تهتز وتتحرك، أحيانا إلى الأمام، وأحيانا إلى الخلف. إننى أناور بأطراف أصابع يدى وقدمى. شعرت بآلام فى كليتى وبطنى. . نهض دانيل من مقعده، فتح الباب، ثم وجه سلاحه الرشاش نحو الحارس، الذى وقف ساكنا فى ذهول، ثم فجأة، سقط على أرضية البرج الخشبى. هل هو فى وضع الانبطاح؟ هل أصيب بإغماء؟.

على عمق خمسة عشر مترا تجمع السجناء فى طرف الفناء، يتابعون المشهد. لا أرى من بينهم ميشيل. إنه بلا شك يتسلق الآن الحبل. إن وضع الطائرة لا يتيح لى رؤية ميشيل وهو يصعد إلى سطح البناء بالجناح البنائى الثالث أمامى. وعلى بعد نحو خمسة عشر مترا، رأيت سجينا يدخن سيجارة: ينفث من فمه دخانا، ثم يضع ذراعيه متعانقين على صدره، ثم ينفث دخانا، ويضع ذراعيه متعانقين على صدره. . . ثم يشير بذراعيه (منبسطين)إلى الإمام: إنه يعنى ميشيل بالتأكيد. قلت فى نفسى: إذا توقف هذا السجين عن تكرار تلك الحركة، فلابد أن يكون حدث شىء لزوجى.

استمر الرجل ينفث ويشير، ينفث و. . . . والهيليكو تثير ضجيجا هادرا كصوت الجحيم. . شعرت أن قدمى اليمنى متشنجة، فهى ترتعش تلقائيا بلا توقف. ظل الرجل يتابع تكرار حركته، ثم توقف فجأة. وهنا صاح دانيل:

ـ ها هو . .

لمحت كتفين ورأسًا أعرفها جيدا: أخيرا يلوح وجه ميشيل ضاحكا بشدة ضحكة هيستيرية. صرخت:

ـ إننا مجانين. حقا إننا مجانين، لكنه أجمل يوم فى حياتى. أحبك يا ميشيل. أحبك. أنا هنا . .

إنه فوق السطح، متكور، لتشبثه بقرميده المائل. خفضت ارتفاع الطائرة مترا، مع التحرك قليلا إلى اليمين بحرص شديد. مد دانيل ذراعه، والتقط ميشيل من كتفه، ثم طرحه على المقعد، وهو لا يكف عن الضحك، ناظرا إلىّ، ثم ضرب بقبضة يده جدار المقصورة المتكور، من شدة الانفعال، وأشار بالانطلاق . . .

ارتفعت بالطائرة، وضغطت على مقابض القيادة، لتصحيح خلل التوازن، الذى نتج عن وجود ميشيل فى الجانب الأيسر. رمقْته بنظرة، فإذا هو جالس باسترخاء ينظر إلى السماء. أثناء ارتفاعنا أخرج المسدس الذى معه، وأخذ الرشاش، وألقى بهما إلى فناء السجن، فسقطا مهشمين . . إنهما من البلاستيك. صفق السجناء بشدة، وعلت صيحاتهم المدوية، حتى إننا سمعناها تغطى على هدير الطائرة وصفيرها الحاد.

فى المقعد الخلفى جلس دانيل يضحك مقهقها. غيرتُ الاتجاه. لوَّح ميشيل بذراعيه، وحرك رأسه وقدميه، كأنه يرقص طربا، وصاح:

ـ أحبك يا ناد. أنتِ رائعة. (قال الجملة الأخيرة بالإسبانية) . . حلقت كلماته فى سماء صافية مدهشة . .

اقتربنا من المدينة الجامعية. قلت لميشيل:

ـ قف يا ميشيل، فعند الهبوط أخشى يا زوجى الحبيب أن تفقد الهيليكو التوازن، كما أفتقده أنا الآن من الفرحة بلقائك . .

اتخذتُ وضع الهبوط. نحو مائة من الطلاب والطالبات يتجولون فوق حشائش المكان الذى سنهبط إليه. نظروا نحونا فى دهشة.. فلما زاد اقترابنا، أسرعوا مبتعدين كعصافير تنتفض مذعورة.

وقفتُ بالطائرة على ارتفاع ثلاثة أمتار من الأرض، ثم بذلت جهدى لأهبط برفق قدر المستطاع. عندما لامَسَت الدعامات السفلية سطح الحشائش، أوقفتُ المحرك، فقفز دانيل أولا، ثم بدا متحيرا.. فصرخ فيه ميشيل:

ـ إلى السيارة. أدر محركها، إلى أن نلحق بك!.

أمسك ميشيل بيدى، وطفقنا نجرى أمام الطلاب المذهولين... وميشيل يصيح طربا:

ـ ناد (أى نادين).. لقد نجحنا..!.

مازالت أذرع مروحة الطائرة تدور، ونحن نجرى نحو السيارة المنتظرة على مقربة، مفتوحة الأبواب. ما إن قفزنا داخلها، حتى انطلق بها دانيل، قبل أن نغلق أبوابها. وما إن استقر بنا المقام، حتى احتضننى ميشيل، وتعانقنا طويلا، طويلا.. ثم وضع يده فوق قلبى سريع النبض. أغمضت عينى. فى غمرة النشوة البهيجة، أحسست بوطأة الأيام المقبلة: مع بداية الهروب القلق..!

وبعد أربعة أشهر من الهرب والاختفاء، أُلقى القبض على ميشيل فوجور، بعد إصابته فى رأسه أثناء عملية سطو. ظل فى غيبوبة كاملة مدة أسبوع، واستمر ينزف فترة طويلة.

حوكمت نادين... والعقوبة: أربعة وعشرون شهرا فى السجن، منها تسعة مع إيقاف التنفيذ، بتهمة التآمر، والمساعدة على هروب سجين. فى ٢٢ مارس ١٩٨٧ ولدت طفلا فى السجن. أما الزوج المحبوب، فقد نال أربعة عشر عاما، عقوبة على الهرب والسرقة، تضاف إلى سنوات الأحكام السابقة، ليصبح الإفراج عنه فى عام ٢٠١٧، مالم يَحْظ بمغامرات أخرى، وسنوات إضافية أطول..!.

# رئيس غرفة العمليات الخاصة.. لص!

يميل الناس - أو معظمهم - إلى سماع الإشاعات، وحكايات المغامرات، والجاسوسية، وما خفى عنهم وراء الأحداث، وحول مشاهير الشخصيات، كأن هذا طُبع فيهم، وقليلا ما يحاولون بذل أى جهد للتحرى أو التروى، لفصل الحق عن الباطل، وتبيُّن الصدق من الزيف..

وفى شتى الدول اليوم، جهات رسمية وإدارات، مهمتها تتبع ما يظهر من إشاعات ضارة مقلقة، وتقصى مصادرها، وإبلاغ السلطات العليا فى الدولة، لاتخاذ ما تراه بشأنها، بما يحفظ على الناس الهدوء والاستقرار والأمن.

هناك جانب آخر، لا يقل أهمية، وقد يكون فى بعض الظروف والأوقات أشد خطرا، وهو: حماية الدولة والمجتمع مما يدبَّر ضدهما فى الخفاء، فى الداخل والخارج، وممن يريدون بهما شرا، ولو على المدى البعيد.. إن حماية الدولة والمجتمع عمل عظيم جليل، يقوم به رجال - ونساء أيضا - شجعان أذكياء، يعملون ليل نهار، ويتعرضون حقا للأخطار، وتزداد مهامهم خطرا وصعوبة مع تطور التكنولوجيا ومفرزاتها، ومع تطور وسرعة وسائل الاتصال والمواصلات، ومع كثرة تنقل الناس بين العواصم والمدن والقارات، ومع التنافس المتصاعد المستمر - ويكاد أحيانا يبلغ درجة المعارك المستترة - فى مجالات متعددة: سياسية، واقتصادية، وصناعية، وتجارية، وسكانية، وفكرية.. فضلاعن أهمها وأقدمها: المجال الحربى الحيوى الذى تضطلع به الجيوش والقوات المسلحة. ومما يزيد أولئك الذين يعملون - سرا عادة - فى حماية المجتمع

والدولة، إجلالا وتقديرا، أنهم يحرزون نجاحات وانتصارات تبلغ أحيانا مستوى البطولة، ولكنها تظل سرا دفينا، لا يعلم بها أحد سوى القلائل فى محيطهم، أو بالمناصب العليا بالدولة التى يعنيها أمر هؤلاء وأداؤهم.. فهم أبطال مجهولون، وحراس أمن مستترون، وحتى بعد انتهاء خدمتهم، فإنهم لا يتكلمون..

القليل النادر الذى يصدر عن تلك الأعمال، تُكشف أسراره بعد سنين من وقوعها وسنين، ويُقبل عليها الناس بشغف، كتابة أو سينمائيا، لأن الواقع فيها أغرب وأبدع من الخيال، ولأنها تلمس غريزة فطرية فى الإنسان، وهى حب المعرفة، ونزع حجاب المجهول، ولأنها - وهو المهم - تُظهر تفوق فكر على فكر، وحيلة على حيلة، ومقاومة على مغامرة، وحق على باطل. أليس أمرا شريفا عظيما مبهرا أن تقول «العين الساهرة» لليد المتلصصة:

- حسبك. نحن هنا واعون، لا نغفل ولا ننام؟!.. وهذا مثال.

الفرقة السابعة بالشرطة الفرنسية مهمتها: مكافحة الجاسوسية فى الداخل، وجمع المعلومات الدقيقة التى تمس مصالح الدولة، أو إعانة السلطات العليا على اتخاذ القرارات السليمة المناسبة. أطْلَقوا على رجالها وكل العاملين والعاملات بها: «المقاتلون فى الظلام». كانت بدايتها على يد ضابط شرطة كبير، يدعى: «لو روىْ فينْفيل». مجال نشاط الفرقة: جمع المعلومات «الموثقة» يوما بيوم، ووضع تقرير عنها، لرفعه إلى من يعنيهم الأمر من كبار المسئولين، حتى رئيس الجمهورية. وكل الدول فى التقدير والتعامل سواء، ففى السياسة: لا حب، ولا كراهية، وإنما هى مصلحة الوطن وحمايته. وأصدقاء اليوم، قد يُعادون فى الغد، والعكس صحيح.

بعد سنوات من انتهاء خدمته، أصدر «فينْفيل» كتابا عن بعض أعمال تلك الفرقة السابعة، لقى رواجا كبيرا، وأظهر حقائق وأساليب مدهشة، وكشف عن الأخطار الشديدة التى يتعرض لها هؤلاء، «المقاتلون فى الظلام»، وأن خطأ

واحدا فى أداء عملهم، لابد أن يُعرض المسئولين فى الدولة ـ ورئيسها ـ لحرج وملامة من دول أخرى، لكنه فى الوقت نفسه عمل جرىء مفيد، لابد منه.

وتستعين الفرقة بالخبراء والفنيين والأكفاء على أعلى مستوى، ولها معامل ثابتة أو متحركة (فى سيارات مجهزة جيدا، لكنها غير مميزة عن سيارات شركات النقل)، وفيها تُفَض الرسائل والطرود المتعلقة بالسفارات الموضوعة تحت المراقبة، أو الأشخاص المراقَبين، والسياسيين المطرودين من بلادهم، أو أعضاء الوفود القادمين لأعمال أو مؤتمرات، وتدور حولهم الشبهات. . . وبعد تصويرمحتويات الرسائل أو الحقائب الدبلوماسية أو الطرود، تعاد إلى حالتها تماما خلال فترة زمنية صغيرة محسوبة بالدقائق،حتى ولو كانت مُحكمة الأختام، والعلامات السرية، والأقفال. ولنترْكه يحكى عن بعض الوقائع.

قبل عامين من مصرعه، اقترح الرئيس الأمريكى جون كينيدى عقد مؤتمر دولى لتنمية التجارة العالمية، وتخفيض حقوق الجمارك. حضر هذا المؤتمر ثلاث وسبعون دولة غير شيوعية، وكان افتتاحه فى جنيف، فى مايو ١٩٦٤.

فى ذلك الوقت.. كنتُ مازلت مقتنعا بأن فرقتنا السابعة لاتُقهر، وأننا محاطون برعاية السماء، وأن الجماعة التى أرأسها لا تُهزم، ولا تُنال بسوء، كما أنها أتت من الأعمال والإنجازات ما تحسدها عليه فرق الخدمات الخاصة للدول الأخرى.

كان هذا المؤتمر الدولى نقطة ارتكاز وتحول بالنسبة لمستقبل أوروبا النقدى، خاصة أن الفرنك الفرنسى حينذاك كان فى حالة ضعف وهزال، وكان وزراء المال الأوروبيون يضغطون على الرئيس الفرنسى الجنرال دو جول لتخفيض قيمة الفرنك.

بالتأكيد. . . كانت واشنطن تعمل ضدنا. ودو جول الذى أعلن انسحاب فرنسا من حلف شمال الأطلنطى، كان ينظر إلى أمريكا من علٍ (أى من أعلى)،ويحاول تجميع دول أوروبا خلفه، مرتكزا فى السياسة النقدية على

الذهب، لا على الدولار، ليكون للعملة مرجع ثابت واضح القياس والدلالة.. فكان اليانكى (كلمة تحمل شيئا من السخرية، ويُقصد بها الأمريكيون) يطلقون على مسعى الجنرال «لَمْسة جولية».

هكذا، كان الإعداد لمؤتمر مصيرى كهذا، ليس فقط مجرد مؤتمر قمة، خاصة فى الكواليس (أى خارج نطاق الجلسات العلنية) على مستوى فرق الخدمات السرية. إن كل رئيس وفد إلى المؤتمر يتوق إلى معرفة ما ينويه أو يُضْمره رؤساء الوفود الأخرى، لكى يفاوض على أفضل الشروط المناسبة له. إنها الورقة الخفية التى يحاول كل مشارك فى اللعبة ـ أو منافس ـ أن يتعرف عليها. وبدون ذلك.. يكون الجلوس على مائدة المفاوضات ذات الغطاء الأخضر من غير معرفة ما يدور فى أدمغة الآخرين، يكون أشبه بعملية انتحارية.

وقُبيل الإعداد النهائى لعقد المؤتمر، اجتهدتْ أجهزة المخابرات، والفرق المعنية الأخرى فى جمع المعلومات من عواصم الدول المشتركة فى المؤتمر، طبقا للوسائل التقليدية فى الحصول على المعلومات، ووُضع دبلوماسيون أجانب ممن يقيمون فى باريس تحت استراق السمع (من خلال الأجهزة التليفونية)، وهى وسيلة ـ فى تقديرى ـ لا تُجدى، لأن الدبلوماسيين حذرون، ولا تفلت منهم أسرار عبر التليفون، وربما تعمدوا التحدث بمعلومات مضلِّلة عكس الحقيقة، وما يُضمرون.

إن التقارير الواردة من الملحقين بسفاراتنا فى الخارج، ومن مراسلينا المبجلين، لا تكشف شيئا، ولا توضح استنارة على الإطلاق. حاولنا ـ بلا جدوى ـ التنصُّت على خطوط تليفونات بعض الدبلوماسيين الذين يتعاملون بالرموز (الشفرة)، حيث كانت تتغير باستمرار، ومعقدة، وتحتاج فى تحليلها إلى وقت طويل.

لم أجد أمامى ـ قبل انعقاد المؤتمر بثمانية أيام ـ سوى العمل الساخن وبسرعة، خاصة بعد أن تقرر عقد اجتماعات تمهيدية للوفود فى مدينة «كان» الفرنسية.

حضر الوزراء ـ رؤساء الوفود ـ إلى «كان»، وفى صحبة كل منهم عدد كبير من المساعدين، والمستشارين، وفرق الحراسة، وأيضا حقائبهم المتخمة بالتقارير والوثائق. وفى مثل هذه الظروف.. يكون العمل ـ من جانبنا ـ مغامرة خطرة، وتعرض متزايد لوقوع أزمات ومواقف لا تُحمد عقباها.

شرعتُ فى وضع خطتى. أولا ـ وتلك ميزة ـ أن الوزراء جميعهم ومن معهم سينزلون للإقامة فى فندق أو قصر «ماجستيك»، وهو بالنسبة لى ساحة عمل مألوفة. اخترتُ لفرقة أو «أوركسترا العزف» التى أقودها مجموعة من أمهر المتعاملين معى فى أجواء الفنادق والقصور، ولهم سابق خبرة ممتازة فى هذا المجال، ووضعت فى تقديرى مساعدات من جانب إدارة «ماجستيك»، مثل اختيار الغرف الملائمة لقيادة العمليات، والأجهزة والأدوات المعملية، وأجهزة اللاسلكى والاستقبال الصوتى.

«زرعت» بعض رجالى بين الموظفين والعاملين بالفندق، مثل القائمين بالخدمة، والنظافة، وطلبات الغرف، والمصاعد، وحراس الأدوار، والأبواب، ومواقف السيارات..... إلخ. ثم انتقيت أولئك الذين سيزينون «الكعكة، أو التورتة».. مثلا استدعيت «جاك فيرا» زميلى القديم، الذى شاركنى فى مواجهة الموت، يوم أن عاد الملك محمد الخامس إلى حكم مراكش (المغرب).. أسرع جاك إلى ماجستيك، واتصل سرا بالمسئول عن إدارة الفندق ـ القصر، ليحجز لنا الغرف التى سنقيم فيها، بشرط أن تكون فوق مقر إقامة الوفد الأمريكى، الذى يرأسه الوزير والصديق الشخصى للرئيس كينيدى، وهو: «جورج بال» الخبير فى الشئون المالية.

أمضى جاك يومين كاملين فى جناحنا بالفندق، لم يغادره. فحَصَ كل صغيرة وكبيرة.. لم يترك شيئا غير ملائم، إلا وأصلحه، حتى الأجزاء من الأرضية التى تحدث صوتا، أو الأبواب التى تحدث صريرا (تزيّق). طوال الليل ظلّ ساهرا ممددا على الأرض، يرصد مصادر الأصوات والضوضاء، وقضى

ساعات فى التدريب على الحركة، والتنقل السليم داخل الغرفة فى الظلام الدامس، مغمض العينين، دون إحداث أدنى صوت، أو الارتطام بمحتوياتها. زيَّت أقفال الأبواب، والدواليب والمفصلات. أخذ بصمات كل المفاتيح، ومن بينها مفتاح باب الغرفة، التى سينزل بها الوزير الأمريكى، وعين موضع ميكروفون التنَصُّت فى تلك الغرفة داخل جناحه الخاص.

إننا نضع هذا الميكروفون عادة ملتصقا بعارضة (بلدكان) الستارة، وهو مكان جيد لالتقاط الصوت من داخل الغرفة، ونختاره من نفس لون قماش الستارة. وللتمويه أكثر.. نغطيه بطبقة سميكة من الدهانات من اللون ذاته، فلا تكشفه أجهزة البحث عن الميكروفونات السرية. ولتمام الحيطة، قررنا ألا نضع الميكروفون فى مكانه المختار، إلا فى اللحظات الأخيرة، عقب وصول الوزير الأمريكى، بعد أن يتفحص «غوريللات» الحراسة المرافقين له جناحه بدقة. إنه ميكروفون دقيق، يمكن تغيير اتجاهه من بُعد، صنعناه خصيصا فى معاملنا. وهو يوجَّه نحو السقف، حتى يتمكن أحد رجالى من التقاط موجاته، من خلال جهاز وُضع بالغرفة العلوية، فوق حجرة الوزير مباشرة.

لم يكن هدفنا التجسس على الوزير جورج بال، والتقاط محادثاته الشخصية.. فهو لن يتكلم بشىء ذى قيمة فى التليفون. كان الهدف هو معرفة الجدول الزمنى لتحركاته: معرفة متى وكم من الوقت سيكون خارج غرفته، حتى يفسح لنا الطريق، كى نبحث فيها عما يهمنا. وإذا كان بها بعض الوثائق، فإننا نصورها بكاميرا خاصة فى معملنا بالدور العلوى، ثم نعيدها إلى مكانها بالضبط قبل عودته. ولكى نستفيد بالوقت، والإنجاز السريع، قررت ألا نكتفى فقط بالتصوير، وإنما تتم عمليات التحميض والطبع (للميكروفيلم) فى الفندق ذاته. لذا.. استحضرت إحدى السيارات المعملية التابعة لنا، وهى لا تختلف من الخارج عن سيارات شركات غسل الملابس وعلامتها، وجعلتها تقف مجاورة لأحد الأبواب الخلفية غير المطروقة من الفندق، دون حاجة إلى عبور بهو المدخل الرئيسى.

لكننى سرعان ما تبينت أن الوقت أقصر من استخدام سيارة المعمل، ولابد من نقل المعمل إلى غرفة مجاورة لجناحنا مباشرة، إذ ربما لا يكون تصوير الوثائق واضحا أو جيدا بعد تحميض الأفلام، فلابد إذن من إعادة التصوير والوثائق بين أيدينا، قبل إرجاعها إلى مكانها، وليس فى الوقت متسع. . فإذا تأكدنا من سلامة هذه العملية، أرسلنا النسخ إلى باريس مباشرة، دون أن نضيع دقيقة واحدة.

كنت فى حاجة إلى مساعد، يستطيع التجول فى الفندق بحرية تامة، وأن يصعد على سجيته إلى طابق من الطوابق، ويتوقف قليلا لمحادثة أى شخص، حتى تتم إعادة الوثائق إلى مكانها بعد تصويرها. كل ذلك من غير أن يلفت النظر، أو يثير أدنى شك.

ولماذا لا يكون هذا الشخص امرأة جميلة، غاية فى الرشاقة والأناقة، وفخامة الحديث، ونبل السلوك؟. إنها بهذه المواصفات. . تحظى بالإعجاب، وتستميل القلوب، وتأسر الأنظار أينما تنقلَتْ، فلا تنشغل بسواها. إنها بالفعل جاهزة، وفى متناول يدى. إنها الكونتسة. تنطبق عليها تماما تلك المواصفات. وهى تعمل معنا منذ فترة طويلة. جمالها مفرط، وقوامها مبهر، وثقافتها رفيعة، لبقة، كتومة، جريئة، تحسن التصرف فى أصعب المواقف. وهى ليست غريبة على الماجستيك، فعائلتها تنزل بهذا الفندق (القصر) منذ افتتاحه من نحو نصف قرن، وهى تُستقبل فيه استقبال الملكات. إنها كريمة فى سخاء، متألقة فى أرستوقراطية، محمية الجانب، يحييها الخدم بالانحناء، ويودعها كل الرجال بابتسامة المسحور بمفاتنها. إنها تملك كل عناصر الانسجام التام مع المطلوب منها: أن تقطع الممرات الداخلية جيئة أو ذهابا على نحو طبيعى للغاية. . فمن ذا الذى يجرؤ على الشك فيها، أو البحث وراءها، أو حتى اعتراضها، والاقتراب منها؟. . قلت لها:

ـ وفوق ذلك. . ستلعبين دور عازف الناى السحرى الذى يجلب بأنغامه كل

من يسمعها، حتى الجن والطير.. عليك بشد أنظار أعضاء الوفود نحوك، وكذلك رجال حراستهم فى أماكن محددة، فى «البار» مثلا، بينما يكون رجالى منهمكين فى عملياتهم.

يبدو أننى لم أحسن الحديث معها.. فهى بالفعل تجذب نحوها كل القلوب والأبصار، بمجرد ظهورها فى أى مكان.. فكأننى طلبت منها أن تصنع شيئا، هو واقع وبديهى بالنسبة لها. لم تظهر استياء من نقص لباقتى، لكنها قالت، وكأنها تحذِّرنى:

- أنا أسافر إلى «الكوت دا زير» - حيث منتجع كان - بالطائرة الخاصة. وزيادة فى الحيطة.. لن أستعمل واحدة من سياراتى.. فعليك أن تعد لى سيارة تليق بى، وتنتظرنى بالمطار.

أخبرتُ جان مارى - البارع فى فتح الخزائن المغلقة بإحكام، الذى اشترك معى فى سرقة محرك طائرة تويولف الروسية - أخبرته أن يلعب دور سائق الكونتسة، ثم قلت له:

- اذهب إلى جراج «روميو»، واستأجر أفخم سيارة تجدها عنده، ولا تجادل فى قيمة الإيجار، فالدولة هى التى ستدفع.

عند روميو، توجد أفخر أنواع السيارات الفارهة الأمريكية، وبعضها آل إليه من مقامر تعيس الحظ، باعها إليه فى ساعة احتياج وضيق، مقابل دراهم معدودة.

فرح جان مارى بتلك المهمة، وزادت فرحته عندما منحتُه حرية مطلقة فى استئجار أفخم سيارة، وبأى ثمن. واختار واحدة فريدة فى فخامتها، وأشدها جذبا للانظار: فيرلين/ ٥٠٠، كأنها شبح، في لون بياض الإوزة، تزينها - كالعروس - حليات من الكروم براقة. وزاد من بهائها ورونقها جلوس الكونتسة داخلها، بأناقتها، ورشاقتها، وجمالها وأبهة النعيم الواضحة عليها. إن هذه السمات جميعها - مع سلوك الكونتسة الرفيع المستوى - هو الضمان الكبير

لإنجاح مهمتنا الصعبة. ويستحيل على أى امرئ ينظر إليها أن يظن للحظة أنها تشترك فى نشاط سرى.

عندما وصلت إلى فندق ماجستيك، حيث تجرى فيه واحدة من أكبر عمليات الحرب الخفية منذ عام ١٩٤٤، أدركت أننى الشخص الوحيد الذى يملك رؤية شاملة لهذا الموقف غير العادى. إن طابقاً بأكمله يشغله أعضاء الوفود، ومستشاروهم، وحراسهم. وكل الأجنحة بهذا الطابق الفسيح مفخخة (بأجهزة التنَصت)، مثل الغرفة الرئيسية بجناح الوزير الأمريكى. وقد حملت على عاتقى مسئولية المخاطرة، ومراقبة كل الوزراء القادمين من الخارج ـ عدا دول هولندا ، وبلجيكا، والدانمارك ـ وبتركيز أشد على وزراء الولايات المتحدة، وإيطاليا، وألمانيا الفيدرالية (الغربية قبل توحيد ألمانيا).

فى الطابق العلوى مباشرة، فوق طابق الوزراء، يقيم الفريق العامل معى نحو خمسة عشر من الضباط والفنيين. من بين الأجنحة والغرف التى استأجرناها، جناح خاص بأجهزة السمع والتنصت طوال الأربع والعشرين ساعة يوميا، ويشرف عليه خبير يتحدث بكل اللغات المستخدمة فى المؤتمر، ولديه وصلة من الميكروفونات الموضوعة داخل قاعة المؤتمر أمام الأعضاء. وجناح آخر خصصتُه لقيادة العمليات، وأيضا للجوء رجالى إليه ساعة الخطر.

وكما توقعت، قبل افتتاح المؤتمر بأربع وعشرين ساعة، ووصول رجل الدولة الأمريكية جورج بال، وهو من البارزين فى الحزب الديمقراطى، حَضَرت مجموعة من رجال الحراسة السرية الأمريكية، وجوههم برونزية، ومن ذوى المهارات الرياضية والدفاعية، يرتدون ملابس حريرية، ويبتسمون فى ضراوة. مشَّطوا غرفة الوزير بمنتهى الدقة؛ فلم يعثروا على شىء يريبهم.

انتظرنا حتى فرغوا من مهمتهم، ثم أسرعنا ـ خفية ـ بوضع الميكروفون الصغير المتحرك فى كل اتجاه، وثبتناه فى جسم عارضة الستارة بالغرفة. تم ذلك عن طريق أحد رجالى، الذى قام بدور خادم الغرف. نفس الشىء حدث

فى كل غرف الوزراء. لقد أصبح الطابق بأكمله ـ الخاص بأعضاء الوفود ـ تحت مراقبتنا تماما. وسرعان ما أدركْتُ أن «غوريللات» الحراسة المرافقة للوزير الأمريكى لا يتشككون فى شىء، وأن جل اهتمامهم منصب على حماية الوزير جسديا خارج الفندق، فإذا تحرك إلى أى مكان، أسرعوا ليكونوا معا خلفه مثل ظله، لا يبتعد ولا يغيب عن أنظارهم لحظة واحدة.

جلسْت بعيدا منذ اليوم الأول، أرقب ما يجرى داخل الفندق. تبينْتُ بوضوح ذاك الرجل: طويل القامة، صدغه عريض رمادى اللون، على وجهه مسحة من العبوس. إنه جورج بال، متجه نحو قاعة الطعام لتناول العشاء الرسمى، بمناسبة افتتاح المؤتمر. رأيته يمشى متئدا بين حراسه الخصوصيين، ذوى الأسنان الحديدية، وكأنه إحدى قطع الأسطول الأمريكى، حاملة طائرات مثلا، وحولها سفن مساعدة!. فى الممرات والقاعات وفى البهو الكبير، حركة وتدافع وتسارع. وعند المصاعد المختلطة بالهَمْهمات والنداءات، وحشرجة أجهزة التخاطب اللاسلكى (توكى ووكى) التى يحملها الحراس. وبعدها، ساد الصمت والهدوء.

غادر الوزراء غرفهم، واحدا إثر واحد، ومن خلفهم الحرس الخاص، حتى تواروْا عن الأنظار. ومن الطبيعى أنه لم يفكر وزير منهم بضرورة ترك واحد من الحراس عند جناحه الخاص بلا عمل. اكتفوا بإغلاق أبوابهم جيدا بالمفاتيح. الآن نغتنم الفرصة، ونبدأ نحن العمل. فى كل مرة تتاح لنا فترة زمنية طويلة، يغيب فيها الوزراء بالخارج لتناول العشاء بشاطئ النخيل، بدعوة من عمدة المدينة، أو الغداء بدعوة من كبار الأثرياء المقيمين وقتها بقصورهم الفاخرة.

كنا أثناء ذلك نسرع بالدخول إلى أجنحتهم بالفندق، ونواصل العمل. وعندما نتلقى إشارة من عيوننا المنْبثَّة فى كل مكان، وحول الفندق، ومع الوفود أيضا (النضورجية) ويخبروننا بعودة أصحاب السعادة الوزراء؛ نختفى نحن فى الحال، ونخْنس فى غرفنا، بعد أن نكون قد رتبنا كل شىء فى مكانه فى غرف وأجنحة الوزراء، وأغلقنا الأبواب جيدا بالمفاتيح كما كانت.

كان الموقف وما يجرى فيه أشبه بمشهد من الباليه أو المسرح الهزلى: العقدة الرئيسية فيه هى ألا يلتقى واحد منا بوزير قادم، أو يواجه أحد حراسه. عندئذ سوف ينتهى المشهد بمأساة قد تنتهى بفضيحة وأزمة دبلوماسية، إلا أن رجالى الأكفاء الذين يتسللون كالأشباح، عندهم خبرة أكثر من عشر سنوات فى هذا المجال.

إن الفتى «برنار» الذى كنت أشاهده فى باريس من سنوات، وهو ذاهب إلى المدرسة، يؤدى دوره الآن على أحسن وجه كخادم للغرف. إنه شاب مليح الوجه، ممتلئ الجسم قليلا، فى مشيته ومظهره وسلوكه يعتبر نموذجيا، فضلا عن أنه يجيد التصوير ببراعة وبسرعة، ودقة شديدة، وهذا هو المهم، لأننا نعمل فى الظلام، أو شبه الظلام، وبدقة الحساب بالمليمتر والثانية.

تولى جاك فيرا مهمة العمل فى جناح الوزير الأمريكى جورج بال. ترك هذا الوزير ـ بإهمال ـ بعض الرسائل ملقاة على المائدة بغرفته. وفى ركن منها، وجد جاك حقيبة من النوع الذى تحفظ فيه الوثائق، محكمة الإغلاق بالمفتاح، لكن جاك نجح فى فتحها، بدون أن يترك أى أثر، وصوَّر عدة تقارير، وبرقية قادمة إلى الوزير من واشنطن، عن طريق السفارة الأمريكية فى باريس، بمجرد وصوله. والأهم من ذلك كله... تقريرا كبير الحجم.

بعد عشرين دقيقة، ترك جاك الغرفة بجناح الوزير، وكل شىء فيها مثلما كان تماما. وفى الممر بين الغرف، التقى بالكونتسة تتحدث مع «روجر دولان»، زميلى بالسفارة المصرية فى باريس، المتخفى فى هيئة نزيل بالفندق. أثناء عبور جاك بهما، دس فى يد الكونتسة مجموعة الأفلام المصورة بجناح الوزير الأمريكى، فأسرعت لتسليمها إلى المعمل بالطابق الأعلى، ثم أقبَلتْ إلى الجناح الذى أقيم فيه لتخبرنى أنها راضية ـ بل معجبة ـ بسير العمل داخل ماجستيك، ثم قالت متهكمة:

ـ أرجو ألا أظل طوال الوقت أؤدى هذا الدور المهين، دور كومبارس...

وعلى فكرة، هل تدرى أننى «علقت» الوزير الألمانى؟. إنه رجل وسيم. هل أستمر معه؟.

ـ للأسف يا جميلتى، إن هذا لم يوضع فى خطة عملنا..

ـ وا أسفاه إذن!.. قالت ذلك ببرطمة غنجة ساخرة..!.

بعد ساعة واحدة، كانت بين يدى صور الأفلام مكبرة، لكن لم يكن لدى وقت للتعرف على محتواها.

على أية حال، ليس فحصها ومعرفة ما فيها من اختصاصى. إن مهمتى تنحصر فقط فى الحصول على الوثائق الخام، بدون تحليل محتواها، أو حتى الاطلاع عليها. كل اهتمامى منصب على أن تكون واضحة، وإلا أعددتُ نسخة أخرى أكثر وضوحا.

قبل انعقاد هذا المؤتمر، درسنا ـ من خلال أفلام، وشرائط مصورة بالمؤتمرات، واجتماعات دولية سابقة ـ سلوك جورج بال وعاداته. إنه مثل كثير من الدبلوماسيين يسجل بسرعة وباستمرار تعليقاته وملاحظاته أثناء المناقشات وأحاديث الوفود، يدوِّنها على أي شيء يقع تحت يده: مفكرة ورقية، ظرف خطاب، وريقة صغيرة.. ثم يدس هذه القصاصات فى جيب سترته. وفى الجيب الكثير: تخطيطات سريعة، رسوم، تحليلات عاجلة، تعليمات يريد أن يوجهها إلى أعضاء وفده، تذكرة لتصويب آراء أو موضوعات حيوية. ولابد من فحص تلك الوريقات جيدا لتصوير المناسب لنا منها. ولكن، كيف الوصول إلى ملابس الوزير؟..

إن هذا يتطلب القيام بعملية جريئة فى منتهى الدقة والخطورة معا: التسلل إلى غرفة الوزير الخاصة وهو مستغرق فى النوم. ولا يصلح لها إلا جاك، لمهارته وخفة يده ومعرفته التامة بالمكان. وماذا لو ضُبط متلبسا؟، ستكون كارثة ولاشك. وعندها ستتبرأ إدارة الفندق منه وتَدَّعِى أنه لص تسلل بين فريق العاملين بالفندق، محاولاً سرقة أى شيء، وهو يجهل أنه اقتحم جناح إقامة

الوزير الأمريكى ودخل غرفة نومه. وأشك كثيرا فى أن رجال الأمن والحرس الخاص بالوزير سيصدقون هذا الزعم. قال جاك:

ـ وماذا يحدث؟. إننا نفرح ونبتهج بقدر ما تنجح المهمات الصعبة.. فلنحاول بلا تردد.

ـ إذا حالفك الحظ فى تلك المهمة، فثق أنها ستكون الوحيدة، ولن تتكرر بعد هذه المرة..!.

عن طريق الميكروفون المتخفى بغرفة الوزير نستطيع تتبع أنفاسه، ومعرفة متى سيستغرق فى النوم العميق. فإذا كان التنفس بطيئا هادئا، منتظما، فهذا معناه أنه ينام نوما عميقا. وهذا ما حدث. وفتح جاك باب غرفة الوزير بالمفتاح المقلَّد، ودخل بخطوات الذئب يتحسس طريقه فى الظلام. كان يلبس فى قدمية حذاء من نوع خاص، به طبقة من الكريب لا يحدث أى صوت. وفى الغرفة العلوية مباشرة وضَع مساعد الصوت السماعة الشديدة الحساسية على أذنيه بإحكام؛ فلم يسمع أدنى صوت فى غرفة الوزير، سوى أنفاسه المنتظمة.

أما أنا، فقد وقفت قلقا مترقبا، وقلبى ينتفض بضربات متسارعة. كنت أقف بجوار لوحة شبكة الكهرباء مباشرة التى تغذى طابق الوزراء بأجمعه.. فعند أول صيحة، أو سماع أقل إنذار، أفصل على الفور التيار الكهربى.. فالكهرباء تنقطع فجأة فى كل مكان، حتى فى الفنادق. وفى الظلام يستطيع جاك أن يهرب وسط الارتباك الذى سيحدث، وقبل أن يقع فى قبضة حراس الوزير المفترسين الأشداء.

وحدثت المعجزة.. خرج جاك من غرفة الوزير بسلام، ومعاليه مستغرق فى النوم. كانت المشكلة أنه لم يستطع تصوير الأوراق والوثائق التى فى سترة الوزير، وهو على بعد أقل من مترين من سريره.. فلم يجد مفرا من إحضار كل ما عثر عليه فى جيوب ملابس الوزير لتصويره بالمعمل بالدور العلوى، ثم إعادته إلى مكانه بالضبط بنفس أسلوب التسلل أو الانزلاق اللين الذى

تستخدمه الحيوانات الرشيقة الضارية عند صيد فرائسها. وتم ذلك... ومازال الوزير يغط فى نومه!!.

وفى الحال سافَرَت النسخ المصورة إلى رئاسة الحكومة فى باريس، وبعد ساعات كانت على مكتب الرئيس دو جول. كان واضحا منها أن جورج بال يسعى إلى إثارة الدول الأوروبية ضدنا ـ فرنسا ـ وأنه على وشك النجاح فى إقناع وزراء تلك الدول بالتخلى عن فكرة ـ فكرتنا ـ أن يكون الذهب معيار التعامل النقدى، وهو ما كنا نريد أن يتفق عليه رؤساء الوفود فى «كان».

لكن الجنرال دو جول ـ فى شموخه واعتداده بنفسه ـ كان واثقا من أن أوروبا كلها تمشى وراءه، وأن أية محاولة تزحزحه عن هذا الاعتقاد هى نوع من الهراء والتشويش. ولما كانت تقاريرى وما يدعمها من وثائق لا تتمشى مع آرائه وما يظنه الصواب، فقد نحَّاها جانبا بأجمعها.

وقديما كانت الملكة الفرعونية كليوباترا تأمر بقتل من يأتيها بأخبار سيئة.!. وفى اجتماع مجلس الوزراء، قال دو جول بصوت يدل على الثقة المفرطة:

ـ الأوروبيون؟ إنهم لا يجرؤون على مخالفتى، ولكن أولا: من أين جئتم بهذه المعلومات التى تقولون إنها مدعمة بالوثائق؟.

شرحوا له كيف أن هذه التقارير والوثائق مستمدة من عمليات الفرقة السابعة الموجودة حاليا فى مدينة «كان»، وهى فرع من قسم جمع المعلومات ومكافحة التجسس؛ فانفجر الجنرال صائحا:

ـ آه.. مكافحة التجسس، وجمع المعلومات !. هيا، انظروا. ليس هذا عمل فيه جدية. ومن يضمن لى أن هذه الوثائق مطابقة للأصول؟. أتعرفون فقط كيفية الحصول عليها؟.. فقال قائل بالمجلس:

ـ أتريدون يا سيادة الرئيس سؤال رئيس قسم جمع المعلومات ومكافحة التجسس، الذى يستطيع أن يبين لكم بالتفصيل قيمة تلك الوثائق، وحقيقة مصدرها؟.. فزمجر دو جول قائلاً:

ـ عليكم إذن إرساله إلىّ..!.

رفض كبار المسئولين القيام بهذه المهمة، ومن بينهم مدير مكتب الرئيس، بحجة أننى الوحيد الذى يعرف التفاصيل، والأفضل فى شرحها. إنهم يدفعوننى وحيدا إلى عرين الأسد..

توجهت إلى قصر الإليزية، وكأننى أسير، تحت وابل من طلقات المدافع، وعلىّ أنا «اللص» رئيس قسم المكافحة أن أُقنع دو جول بأن تقاريرى صحيحة، ووثائقى سليمة وطبق الأصل. ولكن، هل سيسمعنى دو جول جيدا ويُصْغى إلىّ؟. أنا أعرف مسبقا أنه غير راض عن أعمال الفرق الخاصة.. فهو يعتبرنا رجال عصابات، نحمل الحبال والأجولة، ونصيد فى المياه العكرة. وكثيرا ما كان يأمر بإلغاء عمليات على جانب كبير من الأهمية، لأنه كان يراها غير لائقة بكرامة الدولة. وعندما طَلب منه الجنرال «جروسّا» الموافقة على عملية لتخريب سفينة محملة بأسلحة مرسلة إلى جبهة التحرير الجزائرية (قبل استقلال الجزائر)، سأله دو جول بصرامة وحزم:

ـ هل تضمن لى أنه لن تنتج عن ذلك ضحايا؟..

هذا هو الرجل الذى طُلِب منى مقابلته لإقناعه بالبحث فى جيوب سترة وزير أمريكى..!.

ـ صباح الخير فينْفيل. هل تعرف لماذا طلبتُ استدعاءك؟.

ـ نعم يا سيدى الجنرال.

جلس خلف مكتبه عابس الوجه. وبحركة من يده تُفصح عن غضبه، قدم إلىّ مجموعة من التقارير والوثائق المصورة التى أعرفها جيدا، وهو يقول فى نبرة صوت تدل على الاستياء:

ـ أريد أن أعرف تفسيرا لموضوع، أوه!..، هذه الوثائق..!.

لمحتُ على وجهه علامات الضيق، والإثارة، والشك، والظن بأن فرق

المهمات الخاصة تصطنع أشياء غير حقيقية، لتجبره على اتخاذ قرار لا يريده. وها هو ينفرد بى لمحاسبتى كمتهم حقيقى وقع بين يديه ـ دون رؤسائى ـ ونظرات الشك والغيظ تكاد تطيح بى.

قال فى حدة:

ـ أريد أن أعرف كل شىء... كيف نفذت العملية، وبأى أسلوب اقتحمت وحصلت على تلك المذكرات والوثائق؟..

لم أجرؤ على أن أذكِّره بأن الوقت الثمين يمضى سريعًا، ويجرى ضدنا، وأنه على وشك أن يفقد الفوائد المستخلصة من هذه التقارير والنسخ المصورة، ومن معرفة نوايا جورج بال.

هل يريد أن يَطَّلِع على التفاصيل؟. حسنا.. لن أخفى عنه شيئا: فتْح الحقائب الدبلوماسية والرسائل والطرود المتعلقة بالسفارات والشخصيات المشتبه فى أمرها، وكيفية فتح الخزائن، والعمل بالفنادق لمراقبة الأجانب المشكوك فيهم، والعمليات التى تطلبها منا مراكز جمع المعلومات على مستوى العالم، والتى لنا فيها مصلحة أمنية مباشرة، ونشاط الفرقة السابعة المكونة من خبراء على أعلى مستوى، وما يجرى فى فندق ماجستيك بمدينة «كان»، بهدف تزويده بالمعلومات الخافية الصحيحة التى تساعده فى اتخاذ قراره النهائى، رغم أنه يظن احتواءها على خدعة تجعله غير راض عنها..

بدا عليه الانزعاج، إذ لاحظ أن فى صوتى نبرة غضب.. فأخذ يسأل ويستفسر، وينصت مفكرا: إذا كانت هذه الوثائق المتجمعة على مكتبه هى فى الحقيقة والواقع ثمرة جهد كبير بذل بإخلاص وجرأة، وبتقنية وجدارة وكفاءة عالية، فمن العسير إذن الشك فى صحتها!.

وفجأة رأيته ينظر إلى ساعته. إنه يدرك جيدا أن الاجتماعات الحاسمة فى مدينة «كان» قد بدأت الآن، وحان الوقت للحاق بها. نظرإلىَّ نظرة متفحصة، ثم قال:

ـ هل تؤكد لى، وتقسم بشرفك أن الملف (الدوسيه) خارج من حقيبة السيد بال؟..

ـ أقسم لك يا سيدى الجنرال..

أخرج من درج مكتبه خاتما صغيرا غير مألوف، وراح يختم فقط الأوراق التى راجعها بنفسه، والتى يرى أنها تستحق التصديق. لم يقل لى أنه كان يظن بى التلفيق والكذب، والخيانة. ولم يقل لى فوق ذلك أنه الآن أصبح مقتنعا، وأنه يأسف لقصور المعلومات المتوفرة لديه. اكتفى بختْم الوثائق وحسب.

من تحت جفون تشبه جفون الفيل، ومن عينين صغيرتين نافذتين، نظر إلى لحظات فى صمت. هل اقتنع أخيرا بأن الوثائق مطابقة للأصل؟. حسن إذنْ!، هذه فرصة للحكومة الفرنسية أن تستمد منها معلومات مفيدة. عظيم. ومع ذلك.. أحسست أن عداء الجنرال لأعمالنا مازال قائما... فنحن فى تقديره سراق خزائن ونشالون. إنه فى السر يذم ويستنكر أساليبنا، ناسيا أنه ليست هناك وسيلة أخرى، وأن مجموعة من أفضل وأكفأ ضباط البلاد تعمل على هذا النحو فى الخفاء، وتواجه مخاطر جَمّة مقابل مرتبات هزيلة.

من طرف شفتيه، وفى شىء من الازدراء، سقطت من فمه كلمتان باردتان، نطق بهما رغما عنه:

ـ شكرا، فينْفيل..

تركت هذا التمثال العملاق الذى تجمدت فيه المشاعر الإنسانية، وعُدت إلى مكتبى مصدوما، مهانا، لكننى شعرت بالارتياح عندما علمت أنه خرج بعد لقائى معه مهرولا ـ نعم دو جول مهرولا ـ ليلحق باجتماعات مؤتمر «كان»، وفى ذهنه نوايا جورج بال المستترة.

جمعت كل العاملين معى فى فندق ماجستيك فى «كان»، من سائق السيارة إلى الكونتسة. إنهم جميعا ممتازون، رائعون، قَلَّ نظراؤهم. علموا أننى قابلت الجنرال، وأنه حاصرنى بسيل من الأسئلة. لم أخبرهم بشىء مما دار فى هذا اللقاء، حتى لا ينتابهم الاستياء والغثيان، ويفقدوا الحماس فى العمل. اكتفيت بأن أعدت المشهد الأخير من لقائى بالجنرال دو جول. قلت لهم:

- سيدتى، أيها السادة: شكرا.. هذا كل ما أستطيع أن أقوله لكم بلسانه.

فى السبعينيات أبدى الأمريكيون اهتماما متزايدا بالمواد المتعلقة بالطيران السوفيتى، وقدروا أن فرنسا يمكن أن تساعدهم فى هذا المجال. وفى مطار «بورجيه» بباريس اتخذ الروس مخزنا كبيرا خارج المنطقة الجمركية، لتخزين قطع الغيار الخاصة بطائراتهم، لاستخدامها عند حدوث أعطال، حيث كانت طائرات الكتلة الشرقية جميعها تهبط فى هذا المطار. هذ المخزن - وملحق به حظيرة مسقوفة لطائرة بأكملها - كان موضع مراقبة دقيقة ومستمرة من جانبنا، وعند إغلاقه يختم الروس أقفاله جيدا.. لكننى سرعان ما استطعت الحصول على نسخة من المفاتيح، والتعامل ليلا مع الأختام. وفى داخل المطار وملحقاته دسست عددا من رجالى على جميع المستويات: منهم مديرو شركات، وطيارون على الخطوط المنظمة، ومضيفات جويات، وميكانيكيون، وعمال نقل حقائب.

ولما كان الأمريكيون على دراية بذلك، فقد كانت أسئلتهم واستفساراتهم كثيرة ومتلاحقة، تبغى معرفة معلومات دقيقة عن خصائص معينة فى الطائرات الروسية، وأيضا تزويدهم بالصور وتسجيلات لذبذبات كل طائرة عند الصعود (الإقلاع)، باستخدام نوع خاص من الأوراق الزجاجية المعدنية، دقيقة فى التحليل الصوتى.

أديت هذه الخدمة لإخواننا الأمريكيين، بناء على طلب من قيادتى العليا، طالما هى متاحة على الأراضى الفرنسية. ارتدى ضباط شبان من فرقتى زى عمال نقل الحقائب، ومارسوا العمل، وفق تخطيط متقن. ومن مخازن «إيروفلوت» - خطوط الطيران الروسية - حصلنا على صناديق أدوات لحام، ووصل، وقِطَع غيار تسلمها الأمريكان.

ومع مرور الوقت، لاحظْت مدى اهتمام الجاسوسية الأمريكية الصناعية، وحرصها على جمع هذا القدر الضخم من المعلومات الذى يمر تحت نظرى. وإذ هم قوم عمليون... فلم يجدوا أى حرج فى الحصول منا على ما يطلبونه

من معلومات لمعرفة أسرار الصناعة عند غيرهم. والروس من جانبهم لم يتورعوا عن عمل نفس الشيء، ولكن بأساليبهم بعيدا عنا. وماذا عن فرنسا؟ أليس من الطبيعى أن تستفيد مختبرات ومؤسسات الطيران الفرنسية شيئا من صناعة الطائرات الروسية؟، ولماذا لا نتعلم من غيرنا ـ خاصة إذا كان قد قطع مراحل متقدمة فى هذه الصناعة ـ ونحن فى سبيل تطوير إنتاج الطائرات المدنية والحربية، ومن خلال ما نحصل عليه من معلومات نختصر الوقت والنفقات، ونستطيع أن نصمد للمنافسة، ونتيح فرص عمل لمهندسينا وعمالنا؟.

مالم أستطع فهمه، هو تخوفنا، وعجزنا معا فى هذا المضمار. هل المهندسون الفنيون عندما يتأففون ـ استعلاء ـ من دراسة الصناعة الروسية، وكشف أسرارها.. هل تنقصهم الرغبة، أو حب الاستطلاع المهنى؟. لقد توقعت منهم إشارة منبِّهة، ولكن لم يحدث. لماذا لا نستفيد من حصيلة المعلومات التى تتوصل إليها الفرقة السابعة، التى هى تحت قيادتى؟.. ولماذا تستفيد منها الصناعة الأمريكية وحدها؟. لقد امتد غيظى إلى الوقود الذى تتزود به الطائرات..!.

فقد لاحظ الأمريكان أن الطائرات السوفيتية تطير بلا مشاكل، بدرجات حرارة منخفضة جدا، أقل من ٣٠و٤٠. وقرر رجال المخابرات الأمريكية (CIA) أن الروس لابد يضعون مادة خاصة فى وقود طائراتهم، يحتفظون بسرها.

قضيت أياما كاملة فى مطار بورجيه، ومطار أورلى، ثم تنبهت فجأة إلى شيء تكرر أمامى ألف مرة، حتى إنه اختفى من عقلى الباطن، ولكن لم يلفت نظرى من قبل: قبل إقلاع أى من الطائرات بالمطار، يتحتم على الميكانيكى المسئول بالمطار أن يأخذ عينة من وقودها، يملأ به أنبوبة، يسلمها للإدارة الفنية المختصة. هذه العينة تعتبر دليلا قانونيا يُحتفظ به بكل العناية اللازمة طوال رحلة الطائرة، وحتى الإعلان عن هبوطها سالمة فى آخر مطار لرحلتها. هذا الإجراء التلقائى ينفَّذ طبقا لتعليمات منظمة الطيران الدولية، وفى العالم كله.

وفى حالة وقوع حادث، تحلل العينة، للتحقق مما إذا كان قد أضيفت إلى وقود الطائرة مادة خطرة. إنه احتياط لازم، ويتم تلقائيا لصالح التحقيقات، وشركات التأمين.

لكن الروس ليسوا أعضاء فى منظمة الطيران العالمية (إياتا)، ويسخرون علانية من هذه التعليمات، ولهم نظامهم الخاص. ولما كانت العلاقة بين ملاحى الطائرات السوفيتية، وبين الفنيين العاملين على أرض المطار علاقة ودية مسترخية، فقد كان يحدث أحيانا أن يطلب الطيارون الروس من الميكانيكيين الفرنسيين على أرض المطار ـ مجاملة ـ إجراء بعض الاختبارات، للتأكد من سلامة ما يرون من أجزاء بالطائرة. كان ذلك يتم بطريقة غير رسمية أو معلنة.

لكن هذا لا يحدث بانتظام، وقد لا يحدث لفترة طويلة. ولو أننا أفلحنا فى الحصول على عينات من وقود طائراتهم بصورة منتظمة، ثم لاحظوا هم ذلك، فماذا يكون رد الفعل لديهم؟. لم أجد أمامى سوى وسيلة وحيدة: أن أستدعى إلى باريس أكثر الميكانيكيين الذين عرفتُهم ذكاء ومهارة، وهو «ريشار» الذى أرسلتُه إلى داكار ـ بالسنغال ـ وهى مركز تجمع استراتيجى للمعلومات بالنسبة لنا. لم أكن مستريحا لاستدعائه، لأهمية وجوده هناك، ولكن تحت إلحاح الأمريكان المستمر، طلبتُه.

إن «ريشار» مشهور عالميا بين الفنيين بالمطارات، لمهارته وبراعته الميكانيكية، وخفة يده، ولمعرفته بدقائق كل أنواع الطائرات، وأن أنبوبته الماصة المدرجة هى بمثابة عصاه السحرية. وهو يتميز بالفكاهة والمرح، فقد استطاع بين ضحكات الروس ومداعبتهم أن يسحب عينة من الوقود بأنبوبته الماصة، وقد نجح بالفعل فى السيطرة عليهم، فكانت تطير فى كل يوم مجموعة من الزجاجات المملوءة بالكيروسين (الوقود) الروسى إلى الولايات المتحدة على مدى أسبوع.

بعد نهاية الأسبوع، جاءنى صديقى «تيرو دو فوجولى» الذى يمثل إدارة

مكافحة الجاسوسية فى فرنسا لدى وكالة المخابرات الأمريكية (CIA)، فصاح مبتسما:

ـ رائع ما أرسلتَه.. ولقد أحضرت لك مجموعته من الصناديق الخاصة المصنوعة من الرصاص، وهى معقمة، فلا تفتحها إلا لحظة وضع زجاجات الوقود الروسى فيها، ثم.. هرب.. فى أول طائرة فورا إلى واشنطن..

وهنا بلغ بى الضيق والغيظ الذروة... إذ كيف تُستثمر جهودنا فى الخارج، ولا نستفيد نحن منها شيئا لتطوير صناعتنا بالداخل؟. هذا شىء لا يحتمل.. صارحت ريشار بمشاعرى:

ـ لقد طفح بى الكيل، أن أُعطى الأمريكان وحدهم الوقود الروسى. رتب نفسك على أن تزيد قليلا من كمية الوقود التى تسحبها. سوف أرسل قدرا منها إلى معامل الوقود بوزارة الطيران عندنا، لعلهم ينتبهون، ويجدون فيها ما ينفعهم.

إنها مبادرة شخصية من جانبى بالتأكيد. وبالفعل، صحا مهندسو المختبرات الفرنسية من سُباتهم، وطلبوا منى مواصلة إمدادهم بكميات أكبر من هذا الوقَود، على الرغم من أن التجسس الصناعى لم يكن قد دخل بعد فى قائمة اهتمامات القيادات العليا، ثم طلب منى خبراء الطيران معلومات أخرى عن الطائرات الروسية. وقال لى أحدهم فى حماس تشوبه الحسرة:

ـ آه.. ياليتنا نستطيع اختبار محرك طائرة روسية عن قرب.. إنهم فى موسكو أكثر تقدما عنا بمراحل فى هذا المجال.

محرك؟.. كل شىء إلا هذا..!. إن سحب جرامات من الوقود فى أحد أطراف ممرات الهبوط أمر ممكن. أما محرك يزن عدة أطنان، ومثبت فى جناح طائرة توبوليف ١٠٤، فهذا مستحيل.. لكن العناية الإلهية كانت فى جانبنا.. كيف؟.

فى يوم، وفى مطار بورجيه بالذات، تعطلت طائرة توبوليف ١٠٤. لقد حدث بأحد محركاتها خلل (فوّت). أسرع الروس بطلب محرك جديد من موسكو، فجاء على طائرة شحن، وتم تركيبه، بدلا من المحرك التالف، بمعرفة الفنيين الروس، الذين لم يسمحوا لأحد غيرهم بلمس المحرك، لا القديم، ولا الجديد. فى تلك الأثناء.. كان رجالى يصورون من بعيد كل مراحل وتفاصيل عملية الفك والإحلال بالطائرة الروسية، إلى أن غادرت طائرة الشحن (التى أحضرت المحرك الجديد) المطار، ومعها الفنيون الروس، دون أن تأخذ معها المحرك التالف، ثم أقلعت الطائرة التوبوليف ١٠٤. وقد علمت بعد ذلك أن الروس فضلوا شحن المحرك المعطوب بالسكة الحديدية، فراودتنى - على الفور - فكرة «استعارة» هذا المحرك لفترة زمنية محدودة، ثم إعادته إلى مكانه أثناء نقله من مخزن الشركة الروسية بالمطار إلى محطة السكة الحديد «سان دنيس»، حيث تعد له عربة نقل خاصة بالقطار.

علمت من مصادرى بالمطار أن الروس يبحثون عن شركة نقل موثوق بها، وفى الوقت نفسه رخيصة تكاليف النقل، لكى تتولى نقل المحرك من المطار إلى محطة السكة الحديد. هنا جاء دورنا للدخول فى هذه «اللعبة». بجرة قلم، تكونت فى الحال «شركة النقل العالمية»، تحمل علامتها المميزة فوق مطبوعاتها، وأوراق تسجيلها الرسمى. وعلى الفور، عُلِّقت لوحة نحاسية على باب أحد المكاتب الكثيرة، التابعة لهذه الشركة، والتابعة لنا فى كل أنحاء باريس، والمجهزة بحيث يدب فيها النشاط، وتعمل فى أية لحظة يطلب منها العمل لأى غرض من الأغراض: التجارية، أو التسويقية، أو الإعلامية، أو..... وهى بالطبع مكاتب شركات وهمية، سرعان ما تظهر بها سكرتيرات، وموظفون، وعمال، وأجهزة حديثة متنوعة. ولم تبق إلا عربات الشحن.

اتصلْنا بإحدى الشركات الوطنية الضخمة، فأعارتنا سيارات حمولة عشرة أطنان، وأوناش (روافع)، نحن فى حاجة إليها. وتم سريعا تغيير العلامات

والكتابات التى عليها، واستبدالها بعلامة شركتنا، واسمها، وعنوان مركزها الرئيسى.

درسنا الأسعار جيدا، ومن خلال رجالنا المنبثين داخل «إيروفلوت» ـ الطيران الروسية ـ تلقينا ـ مثل شركات نقل أخرى ـ طلبا بإرسال عطاء بنقل المحرك، فقدمنا أقل سعر.. ونحن على ثقة، بناء على مصادر معلوماتنا، مع ضمانات أوفر فى الأمان والحفاظ على التكتم، أى السرية حتى إتمام عملية النقل، وهذا ما يحرص عليه الروس. و«بدفعة» من رجالنا بشركة الطيران الروسية، وتأكيدهم للروس على أن شركتنا أولى بالثقة من غيرها، اختار الروس «شركة النقل العالمية» للقيام بتلك المهمة، مع موافقة مدير الشركة شخصيا، ووُقِّعت الأوراق الرسمية، وتم الاتفاق على أن يتم النقل فى اليوم بعد التالى مساء.

إنها فترة زمنية تكفى بالكاد، لكى ننظم خطتنا، وينفذ كل فرد مشترك فيها دوره عن ظهر قلب، وهو مغمض العينين، مثل: السيارة الشاحنة الرئيسية، وما يتقدمها من سيارة تفتح الطريق، وأخرى سرية مجهزة بلاسلكى، لتحجز ما خلفها من سيارات، وسيارات مراقبة مساعدة، للتدخل عند الضرورة أو المفاجآت، وسيارات على مفارق الطرق طوال خط سير الحملة، وحتى المواقع المختارة، ورجال عند إشارات المرور، معهم أجهزة لاسلكى لتلقى تعليماتنا...

لم أنم تقريبا طوال هذه الفترة الزمنية، تنفيذا للخطة، وللاطمئنان على سلامة كل صغيرة وكبيرة من أجزائها.

فى ملابس العمل الزرقاء، جلستُ فى السيارة الشاحنة الضخمة، ممثلا للشركة العالمية للنقل، وبجوارى السائق «جان ـ مارى» خبير الأقفال السابق، وهو الآن «جوكر» الفريق كله. إن منظرنا وهيئتنا يؤكدان أننا الاثنين بالفعل من عمال الشحن.

وصلْنا إلى المطار ـ بورجيه ـ فى الثامنة مساء، وتعمدنا التأخير عن الموعد المحدد، حتى يتم انصراف كل العاملين بشركة الطيران الروسية، ومخزنها

بالمطار. إن مهمتنا هذه تتعلق فقط بإجراءات الجمارك. ويكفى تقديم الأوراق الرسمية المختومة، ليتم نقل الصندوق الضخم الذى يحوى المحرك، وهو مغلق جيدا، وعليه أختام الشركة الروسية، ومنقول «ترانزيت»، أى مجرد عبور إلى الخارج بدون جمارك. وجدنا فى انتظارنا اثنين فقط من الروس، راقبا عملية نقل صندوق المحرك بالمرفاع «الونش»، وساعدانا مع رجال الجمرك فى النقل، ثم وقعتُ لهما الأوراق بالاستلام، وقفزت إلى مقصورة الشاحنة بجوار جان ـ مارى، السائق. ظل الروسيان فى مكانهما يرقباننا. هل سيتبعاننا فى الطريق؟. أرجو ألا يحدث ذلك.

تحركت شاحنتنا العملاقة. وبعد قليل، ظهرت أمامنا بشكل طبيعى ـ دون أن يلحظ أحد ـ سيارة المقدمة (ماركة رينو)، ولمحتُ خلفنا سيارة المؤخرة تتبعنا تماما. كل شىء إذن يجرى وفق الخطة الموضوعة. من خلال اللاسلكى المخبأ فى شاحنتنا، اتصلت بالسيارة الخلفية (سيتروين)؛ فعلمتُ من قائدها أن الرجلين الروسيين يتبعاننا فى سيارة رينو. إنهما إذن يعتزمان مراقبتنا حتى محطة القطار، وهذا أمر مُقلق لنا. لابد من إخراجهما بعيدا عن طريقنا وبسرعة، عند التقاطع القادم مع الطريق المؤدى إلى «دونْيى»، لكن لابد أن يبدو ذلك بشكل طبيعى تماما، لا يثير لديهما أى شك، بل ويكون نتيجة حادث عارض، وقع بسبب خطأ منهما.

فتحت اللاسلكى، بحيث يسمعنى من فى سيارتىْ المقدمة والمؤخرة، ورجالى عند إشارة مرور التقاطع القادم، ثم خاطبت السائق جان مارى الجالس إلى جوارى، قائلا بتحديد ووضوح:

ـ عند الاقتراب من التقاطع أَبْطِئْ سرعتك قليلا، مع اقترابك من إشارة المرور الخضراء. بمجرد وصولك عند التقاطع، يُضاء النور الأصفر، فأَبْطِئْ أكثر، موهِماً أنك ستقف، ثم انطلق قبل إضاءة النور الأحمر لتعبر التقاطع: سيارة المؤخرة تَهُم بالانطلاق خلفك، ثم تتوقف فجأة مع ظهور النور الأحمر، فتصطدم بها سيارة الروس. واضح للجميع؟.

من خبرتى، كنت أعلم أن الروس لن يدعوا الشاحنة تفلت بعيدا عن أنظارهم، وأنهم سيحاولون اللحاق بها بأية وسيلة.. لكن سيارة المؤخرة التى تتبعنا تعرف كيف ستتعامل معهم. وضعنا فى خطتنا أن الروس ـ وقد أثارهم الموقف ـ سيحاولون الخروج من المأزق بالانسحاب من خلف سيارتنا السيتروين (بالمؤخرة)، الواقفة عند النور الأحمر، لينطلقوا خلف شاحنتنا، رغما عن إشارة التوقف. وهذا ما حدث بالفعل.. ففى تلك اللحظة، انطلقت سيارة نقل صغيرة كانت واقفة قرب الإشارة، لتقترب من سيارة الروس، التى تحاول التحرك و«تقفل» عليها الطريق بالوقوف بجوارها تماما.. وتم ذلك كله على نحو طبيعى.

مع تنفيذ هذا السيناريو سريع الإيقاع، ومع الصفير الحاد المزعج لفرملة السيارتين المفاجئ (سيارة المؤخرة عند ظهور الضوء الأحمر، وسيارة النقل الصغيرة) هاجت مشاعر الروسيين، فصاحا وعلا صراخهما يطلبان السماح لهما بالتحرك. وهنا تصطدم سيارتهما بسيارتنا التى أمامهما (السيتروين)، فينزل قائدها غاضبا ثائرا، ويمنعهما من مواصلة السير، حتى يتم التحقيق القانونى اللازم، وهذا من حقه. ومن خلال المرآة التى أمامى بالسيارة الشاحنة المنطلقة فى طريقها، شاهدت ـ مبتعدا ـ كل بوادر المشهد.

جن جنون الروسيين. حاولا الهرب بسيارتهما، لكن رجلنا الذى أُضيرت سيارته بسببهما كان ضخم الجثة، قوى البنية، حال بينهما وبين التحرك، وصرخ مناديا على سيارة الشرطة، التى كانت رابضة ـ وفق خطتنا ـ قريبا من إشارة المرور. أخرج سائق السيارة الروسى حافظة نقوده، محاولا استرضاء رجلنا بأى ثمن، لكنه رفض، مدعيا أنه كان فى طريقه إلى عقد صفقة كبيرة، ولابد من إثبات الواقعة رسميا فى محضر الشرطة، حتى لا تضيع حقوقه المالية، وهو فى أثناء ذلك يصرخ ويسب، ويتهم السائق الروسى بالتهور والحماقة، وعدم احترام قوانين ونظام البلد الذى يستضيفه، و.....

خرجنا الآن من رقابة الروس.. فأسرعنا بالاتجاه إلى أقرب قاعدة جوية

«تريكون» فى سرِّية كاملة. عبرنا البوابة الحربية بهدوء، حيث كانوا فى انتظارنا، ومعنا الصيد الثمين. فى ظلام الليل الدامس، تقدمتنا سيارات إرشاد تقودنا عبر الممرات المعتمة، حتى انتهت بنا أخيرًا إلى حظيرة (هانجر) للطائرات.

ما هذا الاستقبال الحافل؟. نحو ثلاثين من الضباط ـ بالملابس الرسمية ـ والمهندسين، والفنيين، والخبراء، وكلهم على أعلى مستوى، ينتظرون فى شوق، وكأنه حفل العرض الأول لفيلم مثير.. كان معهم أيضا بعض رجالى من خبراء التصوير، وفض الأختام، وإعادتها تماما كما كانت. وبمجرد توقف الشاحنة، تحولت حظيرة الطائرات إلى خلية نحل نشطة داخل غرفة عمليات تجرى بها جراحة خطيرة.

ـ لحظة من فضلكم أيها السادة.

صِحْت فيهم، وأنا واقف بملابس عمال النقل الزرقاء، وأخاطبهم بكل الصرامة والجد:

ـ راقبوا جيدا كيف شئتم، وصوروا كل ما شئتم، ولكن حذار، ثم حذار، ثم حذار أن تلمسوا أى جزء من هذا المحرك..!، أو أن تحاولوا نزع أى جزء منه..!. اذكروا جيدا أيها السادة أن هذه عملية متعلقة بأعلى مستويات الأمن، وفى منتهى الخطورة بالنسبة للدولة. هذا المحرك يجب أن يظل على نفس حالته التى خرج بها من المطار، لا يمس، ولا يكتشف فيما بعد بأية وسيلة أنه تعرض للفحص..

سألنى رئيس المجموعة:

ـ كم تعطينا من الوقت؟..

قلت: الساعة الآن العاشرة والنصف (مساء).. لديكم متسع حتى الثانية والنصف صباحا، ولا دقيقة واحدة بعد ذلك.

أقبل الجميع على العمل، كلٌّ فيما يخصه، بهمة وحماس وتدبر، فتلك فرصة كانوا يحلمون بها: أن يتعرفوا من قريب على بعض أسرار التفوق الصناعى السوفيتى. وما أسعدنى أن أسهم فى تحقيق هذا الحلم.

فى الثانية صباحا لم ينتهوا بعد من تفحصهم ودراستهم المتأنية. وفى الرابعة والنصف كان المحرك داخل صندوقه الكبير، مثلما كان بالضبط، مُحكم الأقفال والأختام، بعد أن صوروا آلاف الصور، ورسموا مئات التخطيطات (الكروكى).

عندما حضر الروسيان إلى محطة سان دنيس فى السادسة صباحا، كان الصندوق الخاص بالمحرك فى مكانه داخل العربة الخاصة الملحقة بالقطار، فتأكدا من سلامة الأختام، وسلامة النقل.

وبعد ثمانية أيام، تلقيت خطابا من وزير الدفاع (الفرنسى)، شاكرا جهودنا التى أكسبت خبراء الطيران نحو عشر سنوات من الخبرة التى حصلوا عليها من «العملية» التى قمنا بها.

oberkandl.com

obeikandl.com

# وزير الدفاع.. جاسوس؟

رحم الله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، ورضى عنه، إذ قال: «قول الحق لم يدع لى صديقا». نعم: فذكر الحقائق قد ينفع المصغين إليها، لكنه ـ غالبا ـ يسىء إلى من يذكرها لهم، أو يذكرهم بها، لأنهم لا يحبونه. لذا.. يحجم البعض عن ذكر الحقيقة، فيؤثرون الصمت.

لكن الصمت هنا سخيف.. مخيف، لأن الحقيقة مفزعة، مروعة، بشعة.

وإن تاريخ الجاسوسية طويل، وحمله ثقيل، غير أن تاريخ الخيانة أطول، وفواجعها أثقل. الخيانة بكل صورها مرفوضة مرذولة، لا مبرر لها، ولا عذر لمرتكبها.. فهى مخطَّأة بشرائع السماء، مُجَرَّمَة بقوانين الأرض. وخيانة الوطن ـ أى الدولة، والمجتمع، والأهل، والناس ـ وما فيه من أحياء وثروات، هى فى الشرائع إحدى الكبر، وفى العقوبات تستحق البتْر: تطهيرا للوطن ممن أراد به الضرر، كإزالة الخلية الخبيثة، والعضو الفاسد المفسد للجسم.

حقا، إن الخيانة فعل إرادى ردىء دنىء. والأشد رداءة وقبحا، أن يأتى هذا الفعل ممن يحمل مسئولية كبيرة فى الدولة، ممن يؤتمن على أسرارها، وأمنها، ومستقبلها، فيكشف السر لأعدائها ـ سواء فى السلم، أم الحرب ـ ويهدد بذلك أمنها، وحاضرها، ومستقبلها. ومقابل ماذا؟.. مال؟، متاع؟، متعة؟.. إذ ما أرخص الثمن، وما أحقر البائع.

ومن أشهر الخائنين الخبثاء فى عصرنا ـ وفى الشر شهرة ـ «كيم فيلبى»، الذى سبب للحكومة البريطانية ـ وبالتالى للدولة ـ أضرارا بالغة، لأنه ابتداء

من عام ١٩٥٦، وكان مسئولا عن قسم مكافحة الجاسوسية بالمخابرات البريطانية، سوَّلتْ له نفسه أن يكون عميلا للاتحاد السوفيتى، ويزوده بأدق الأسرار التى تحت يده.. فلما أحس بالشبهات تحوم حوله، هرب من بريطانيا إلى موسكو عام ١٩٦٣ ليقيم بها.

وفيلبى كان واحدا من خمسة، استطاعت المخابرات السوفيتية أن «تشتريهم»، بعد أن وضعت عينها عليهم، وهم طلاب نابهين بجامعة كامبريدج بين عامى ٣٤ ـ ١٩٣٦، وتوقعت لهم مستقبلا مرموقا فى مراكز عالية فى بريطانيا. وبالفعل، التحق اثنان منهم: «ج. بورجس»، و «دونالد ماكلين» بالسلك الدبلوماسى، فلما شعرا باقتراب افتضاح أمرهما بالخيانة، أسرعا بالهرب إلى موسكو عام ١٩٥١. وبعد سنوات طويلة اكتشفت خيانة رابعهم «أنتونى بلنْت» مؤرخ الفن المقرب من الملكة إليزابيث، الذى اعترف بجرمه وبخيانته أمام المحققين البريطانيين، بعد أن كَشَف سره عام ١٩٧٩ الكاتب الصحافى «أندروبويل»، ثم خامسهم: «جون كيرْنكروس» الذى أحيل إلى المعاش، فسافر متخفيا للإقامة فى فرنسا، لكنه وقع فى قبضة سكوتلانديارد عام ١٩٩١.

ومن عجب، أن يعلو صوت، بل أصوات ـ ومازالت ـ تنادى بأن الحياة الشخصية أو السلوك الذاتى خارج نطاق الوظيفة والمنصب ـ مهما كان كبيرا أو خطيرا ـ لا دخل للمجتمع فيه، لأنها «حرية شخصية».. وكأنما القيادة ليست قدوة، والمسئولية الوظيفية ـ أو السياسية ـ منفصلة عن المبادئ والقيم الأخلاقية، وأن المرء يمكن أن يكون داعرا، وفى نفس الوقت زعيما، أو عربيدا بالليل، ووزيرا بالنهار. وقد حدث... ومازال يحدث:

وزير الحرب العجوز فى حكومة صاحبة الجلالة ملكة بريطانيا بين عامى ٦٠ ـ ١٩٦٣ «جون بروفومو» وقع فى غرام شابة حسناء من بنات الليل، اللاتى يسهل استدعاء إحداهن تليفونيا للمتعة، لوقت قصير محدود بأجر كبير معلوم. وظلت تلك الحسناء المبتذلة «كريستين كيلر» تروح وتغدو مع وزير الحرب

بروفومو فترة طويلة على مشهد من الجميع، دون خجل من جانبه، ولا اكتراث من حكومته ومجتمعه.. لكن الخجل أضحى فضيحة، وعدم الاكتراث أمسى كارثة، عندما علمت السلطات أن «المحبوبة» كريستين «يحبها» شخص آخر، ليس حب غرام وعشق، وإنما حب ابتزاز وتسخير: فهو «إفْجونى إيفانوف» ضابط المخابرات الحربية الروسية، الذى يعمل تحت قناع وظيفة دبلوماسية بالسفارة السوفيتية بلندن!.

وقامت الدنيا فى بريطانيا ولم تقعد، لا دفاعا عن هيبة منصب الوزير، ولا اعترافا بخطيئة الفصل بين الأخلاق والمسئوليات، وإنما لمعرفة شىء واحد: هل تسربت من فم جون بروفومو أسرار عسكرية إلى أُذن كريستين كيلر أثناء أحاديث «الوسادة الناعمة»؟.

وكان ذلك سببا فى سقوط حكومة ماكميلان «المحافظة..»، وتولى حكومة العمال السلطة [1].

**وفى ألمانيا...**

«جونتر جيّوم» من ألمانيا الشرقية (قبل توحيد ألمانيا) يصعد بسرعة درجات سلم المناصب فى الحزب الاشتراكى الديموقراطى فى ألمانيا الغربية، حتى أصبح السكرتير الخاص لرئيس الحزب والحكومة، المستشار «براندت» عام ١٩٧٤.

---

(١) مجرد إشارة عابرة تقتضيها المناسبة: كان النعمان بن على بن فضْلة واليا للخليفة عمر بن الخطاب على ميسان، فبلغ أمير المؤمنين أن النعمان قال شعرا فى الخمر، جاء فيه:

ألا أبلغ الحسناء أن خليلـها ... بميسان يُسقى فى زجاج وحَنْتم

.. لعل أمير المؤمنين يسوءه ... تنـادمنا بالجـوسق المتهـدم

(الحنتم: الجرة الخضراء ـ الجوسق: القصر)..

فكتب إليه عمر: «بسم الله الرحمن الرحيم. حم. تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم. غافر الذنب وقابل التوب. شديد العقاب ذى الطول لا إله إلا هو إليه المصير». أما بعد: فقد بلغنى قولك: لعل أمير المؤمنين يسوءه.... وأيْم الله لقد ساءنى. ثم استدعاه وعزله، فقال النعمان: والله يا أمير المؤمنين ما كان شىء من هذا، وما كان إلا فضْل شعر وجدته، وما شربتها قط. فقال عمر: أظن ذلك.. ولكن لا تعمل لى عملا أبدا، فأقام النعمان بالبصرة يغزو مجاهدا حتى مات!.

وتحت ستار توليه مسئولية الكشف عن الفارين والخونة المتعاونين مع القسم المعادى الألمانى (أى ألمانيا الشرقية) ظل جونتر طوال ثمانية عشر عاما يمد المخابرات السوفيتية والألمانية الشرقية بأخطر المعلومات وأكثرها سرية، حتى إن افتضاح أمره أحدث هزة سياسية عنيفة فى عدد من الدول الأوروبية، وأسقط حكومة براندت، وقضى على مستقبله السياسى.. وحكم على جونتر بالسجن ثلاثة عشر عاما، ثم أفرج عنه عام ١٩٨١ بمبادلته بعدد كبير من الجواسيس السجناء فى ألمانيا الشرقية.

**وفى الولايات المتحدة الأمريكية..**

فى ليلة شديدة الحرارة عالية الرطوبة من شهر أغسطس عام ١٩٨٥، وفى بهو كنيسة صغيرة أنيقة، ترتفع فوق تل فى آرلينْجتون بولاية فرجينيا، تبادل «الدريتش إيمْس» العهد والقسم مع عروسه «ماريا دل روزاريو كاساس». إنه الزواج الأول بالنسبة لماريا، والثانى لألدريتش. صبر المدعوون لشهود مراسم عقد القران، واحتملوا الحرارة والرطوبة، وتوقعوا دعوتهم بعد ذلك لمأدبة فاخرة تليق بالمناسبة السعيدة، لكنهم فوجئوا بتقديم الشراب فقط، مع اعتذار خجول من إيمْس بقلة ذات اليد، بعد أن استنفدت إجراءات طلاقه من زوجته السابقة «نانسى» كل ما يملك من مال وادخار. وصدقه المدعوون، وكان لابد أن يصدقوا... فهم يعلمون جيدا أن هذا الطلاق الذى تم منذ أسبوعين فقط فى مدينة نيويورك، تركه خالى الوفاض، أو كما قال هو: فقيرا مسكينا.

إن المدعوين ليسوا غرباء، فمعظمهم زملاء لإيمْس ونانسى فى وكالة المخابرات الأمريكية (CIA). أما ماريا ـ الزوجة الجديدة ـ فهى فقط التى تعلم غير ذلك.. فقبل عقد الزواج بثلاثة أشهر فقط، أودعت مبلغ تسعة آلاف دولار فى حسابهما المشترك فى البنك، ثم توالى الإيداع، حتى أصبح ليلة الزفاف ٣٨١٠٠ دولار، بخلاف حسابين آخرين لماريا وحدها، وخمسة أنواع من الحسابات باسم إيمْس، وكلها فى نفس البنك.. وهى، وهو يعلمان علم اليقين أن هذه الأموال جميعها قادمة من.. موسكو.

فى تلك الليلة، كان الدريتش إيمْس مشغول الذهن، بادى القلق.. فقد تم الاتفاق بينه وبين أحد المسئولين بالمخابرات السوفيتية القادم من موسكو، على أن يزوده إيمْس يوميا بتقرير موجز عما تتوصل إليه المخابرات الأمريكية من معلومات عن عملاء المخابرات السوفيتية داخل الوكالات والأجهزة الأمريكية، وفى دول الغرب. وزاد من انشغاله وقلقه، أن رؤساءه فى وكالة المخابرات الأمريكية ينظرون إلى زواجه من ماريا روزاريو نظرة تجهم وعدم ارتياح. إن أول لقاء لهما كان فى عام ١٩٨٢، وكان كل منهما يشغل وظيفة فى مدينة مكسيكو، هو: كضابط عمليات للمخابرات (CIA)، وهى: كملحق ثقافى فى سفارة كولومبيا.

فى العام التالى، وضعها فى قائمة الذين يحصلون على رواتب مالية من وكالته(CIA) كمرشدة، أو مزوِّدة بالأخبار والمعلومات، ثم تركا معا المكسيك فى نهاية ذلك العام، وأصبحت ماريا روزاريو فتاته، أى عشيقته. والقاعدة المتبعة داخل الـ (CIA) أن ضباط العمليات لا يقيمون علاقات خاصة مع مندوبيهم، أى الذين يجندونهم للعمل، ولا يتزوجون عادة من أجنبيات. ومع ذلك.. فإن إيمْس تجاوز المألوف، وفعل الاثنين معا.

وعلى مدى تسعة أعوام بعد ذلك، باع الدريتش إيمْس إلى المخابرات السوفيتية KGB (ثم خليفتها الروسية MBRF )، أسماء العملاء السوفيت أو الروس الذين جندتهم المخابرات الأمريكية، بالإضافة إلى معلومات على جانب كبير من الأهمية والسرية، تتعلق بنشاط المخابرات الأمريكية الخاص بالاتحاد السوفيتى. وخلال هذه السنوات، أودع الزوجان مبالغ نقدية كبيرة فى بنكين بولاية فرجينيا وغيرها، وفى بنوك أجنبية بالخارج، بلغ مجموعها نحو مليونين ونصف مليون دولار، كلها عن طريق روسيا، مقابل إفشاء أسرار الأمن القومى الأمريكى.

ألقى القبض فى أول مارس ١٩٩٤ على الدريتش - ٥٢ سنة، وزوجته -

٤١سنة ـ فى أرلنجتون بفرجينيا بتهمة التآمر والتجسس وإفشاء الأسرار العليا للدولة التى تمس أمنها وسلامتها. وفى رأى البعض، أنها قد تكون أسوأ قضية خيانة لوكالات التجسس فى تاريخ الولايات المتحدة كله.

وبعد القبض عليه، رفض إيمس الكلام، ردا على أسئلة التحقيق، لعله بهذا الصمت المطبق، يحصل على حكم مخفف. أما الزوجة، فقد أبدت استعدادها للتعاون مع المحققين، مقابل وعد بتخفيف الحكم. وكان اهتمام السلطات المعنية أولا، هو الإسراع بدرء الصدع، ودرء الخطر، خاصة أن الدريتش يشغل منصبا كبيرا (مديرا) داخل وكالة المخابرات الأمريكية.

إنه يعرف أسماء جميع الجواسيس الأمريكيين والعملاء الروس داخل روسيا، ويعرف تفاصيل معظم العمليات، وهو يعلم أنه السبب فى إعدام عشرة من هؤلاء ـ على الأقل ـ بأيدى الروس. كما يعلم أنه دمر خطط وعمليات الوكالة الأمريكية، الخاصة بالاتحاد الروسى بعد الحرب الباردة، وعَرَّضَ الأمن القومى الأمريكى لمخاطر، تحتاج فى دفعها وإصلاح ما ترتب عليها إلى وقت طويل، وتغيير فى نظام الوكالة من الداخل، وأساليبها فى الخارج.

هاج الكونجرس الأمريكى وماج. أما الرئيس الأمريكى ـ كلينتون ـ فقد طلب من روسيا سحب جميع جواسيسها من واشنطن فى الحال، ودعا إلى التعاون لإصلاح ما فسد. وسافر فريق من كبار المسئولين بالـ CIA إلى موسكو للحصول على معلومات من إدارة المخابرات الخارجية، لكنه عاد بِخُفَّىْ حنين، وعلى الفور أمر الرئيس كلينتون بطرد «ألكسندر ليسنكو» من واشنطن، وهو الدبلوماسى الروسى المعروف بأنه أكبر رأس للمخابرات الروسية فى الولايات المتحدة.

إن هذه الواقعة هى فى إطارها العام «فضيحة» لوكالة المخابرات الأمريكية، إلى جانب أنها مدمرة فى مسارها ونتائجها.. إذ كيف يتحول مدير مسئول كبير داخل تلك المؤسسة العاتية المتعالية، التى تمتد أسماعها وأبصارها وأصابعها إلى

كل شبر وفِتْر[1] فى هذا العالم، كما تدعى وتشهد الحوادث؟، وكيف يخفى عليها هذا الأمر، فتسمع وترى ما يجرى فى أطراف الأرض، ويغشى بصرها، وتصم أذنها طوال تسع سنوات، فلا تبصر ما تحت أقدامها، أو بين أيديها، وتحت سقف بيتها؟.. وتدور أسئلة كثيرة، كبيرة. مثلا: متى وأين تم تجنيد الدريتْش لحساب الروس؟. هل هو الذى جنَّد زوجته لحسابهم، أم العكس؟. لماذا لم يلفت الأنظار أن مرتبه السنوى ٦٩٤٣ دولاراً، بينما اشترى بيتا بمبلغ ٥٤٠ ألف دولار، وسيارة جاجوار ثمنها ٦٥ ألف دولار، وليست له مصادر مالية واضحة؟. متى وكيف أدركت وكالة المخابرات CIA ومكتب التحريات الفيدرالى FBI خيانة إيمْس وزوجته؟، والأخطر من ذلك: هل يوجد عملاء - جواسيس - لروسيا أو لدول أجنبية داخل الـ CIA ؟، وكيف التأكد؟.

وماذا عن الوكالتين الأخريين: وكالة مخابرات الدفاع DIA ووكالة الأمن القومى NSA ؟. إن هذه الوكالات الثلاث هى الأجهزة الرئيسية للمخابرات الأمريكية. وبعد «خمود» الحرب الباردة بين دول النظام الرأسمالى الغربى ودول الشيوعية المنهارة فى الشرق، قرر الكونجرس الأمريكى تخفيض عدد العاملين بهذه الوكالات بنسبة ١٧,٥٪ حتى أكتوبر ١٩٩٦، تقليلاً للنفقات، وهى نفقات ضخمة.. فقد بلغت ميزانية الـ CIA وحدها عام ١٩٩٦: ٢٨,٥ بليون (أى ألف مليون) دولار، علما بأنها خُفضت ١٤٪ عن ميزانية ١٩٩٠.

إن وكالة CIA تختلف عن زميلتيها فى أنها تسرق الأسرار من الدول الأخرى. وهى تنتشلها وتتلقاها من عملائها، عن طريق التصوير والبث عبر الأقمار الصناعية، وتدفع بسخاء للعملاء والوكالات الأجنبية، لكى تلتقط تلك الأسرار من حكوماتها. هذه العمليات والخدمات التى تقدمها للحكومة الأمريكية لا تستطيع أن تقوم بها، أو تحصل عليها وزارة الخارجية، أو وزارة الخزانة، بل ولا تحاول أن تُقدم عليها. وأصبح لزاما على الـ CIA أن تستخدم بعض

(١) الشبر: مقياس باليد معروف، والفتر (بكسر الفاء وسكون التاء): المسافة بين طرف إصبعى الإبهام والسبابة المتجاورين إذا فُتحا.

الوسائل والأساليب والأدوات التى كانت تستعملها فى الاتحاد السوفيتى، لكى تمارس بها عمليات جديدة فى مناطق ساخنة، أو متأزمة فى هذا العالم.

كان «كارلتون» إيمْس، والد الدريتش مدرسا للتاريخ بكلية المعلمين فى «ريفرزهيل» بولاية ويسكونسين، فلما انتقل إلى ولاية فرجينيا مع زوجته «راشيل» المدرسة، وابنه وابنتيه، اشتغل محللا بوكالة المخابرات CIA وقبل وفاته، أَلْحَق ابنه الدريتش للتدريب بتلك الوكالة، وذلك عام ١٩٦٢. ولم يكن قد حصل على شهادة جامعية بعد، تؤهله ـ كما كان يأمل ـ للعمل كضابط عمليات.. فالتحق بجامعة جورج واشنطن، لينال فى عام ١٩٦٧ شهادة فى التاريخ.. فبدأ تدريبه كضابط عمليات: تعلم مداخل ومخارج الكشف عن جواسيس الأعداء، وأساليب تجنيدهم كعملاء للوكالات الأمريكية. وفى نهاية التدريب لم يظهر تميزا أو تألقا مطلوبا فى هذه النوعية من رجال المخابرات، فسبقه زملاؤه، وربما خلَّف ذلك فى نفسه بعض المرارةوالضغينة.

فى عام ١٩٦٩ سافر هو وزوجته نانسى ـ التى تعمل معه فى الـCIA إلى أنقرة بتركيا، فكان أول أعماله التنفيذية تجنيد عملاء للولايات المتحدة من بين الموظفين المحليين التجاريين والصحافيين بالسفارة الروسية (الاتحاد السوفيتى آنذاك) ممن يعملون فى مناطق الحدود الشمالية بين تركيا والاتحاد السوفيتى. ويُذكر عنه فى تلك الفترة أنه كان ضعيفا واهنا رديئا، يفعل ما يجب عليه، وينفذ ما يؤمر به، ولكن بلا جاذبية، أو تأثير حسن.. ثم عاد فى عام ١٩٧٢ إلى مقر رئاسة الوكالة فى لانجلى، ليقضى خمس سنوات فى تنشيط قدراته التحليلية. وفى العام الذى انتُخب فيه جيمى كارتر رئيسا، نُقل إيمْس إلى مدينة نيويورك، ليؤدى العمل الذى مارسه معظم رجال المخابرات الذين يعملون فى حى مانهاتان بتلك المدينة: اقتناص «أشياء مفيدة» من داخل مقر الأمم المتحدة، فسكن هو وزوجته على مقربة من ذلك المقر، وأثبت ـ على العكس من أنقرة ـ إجادة وتفوقا خلال السنوات الأربع هناك. ودائما كان عمله مرتبطا بالسوفييت، وكتلة أوروبا الشرقية، بهدف اصطياد عملاء ذوى قيمة.. فلما نقل

للعمل فى مدينة ميكسكو عام ١٩٨١، لم تصحبه نانسى. فى ذلك الوقت أطلق الرئيس الأمريكى ريجان على الاتحاد السوفيتى: «امبراطورية الشيطان»، فكان نشاط الـ CIA والـ FBI مكثفا فى جمع المعلومات، وتجنيد العملاء السوفيت.

وبينما كان إيمْس يقضى سهرات العشاء بالمكسيك، ويزرع الجواسيس من بين ضباط المخابرات السوفيت KGB، التقطت له وكالة التحرى FBI سرا صورا مع كبار الجواسيس السوفيت المقيمين فى واشنطن: العميد (فالرى مارتينوف)، الخبيرالعلمى الذى يعمل بالسفارة السوفيتية تحت قناع الملحق الثقافى، والرائد (سيرجى سوتورين) الخبير فى الشئون السياسية. هل أفلح إيمْس فى تجنيد أحد السوفيت خلال فترة عمله بالمكسيك، أم أنه وقع تحت تأثيرهم؟. الشىء المؤكد أنه نجح فى إتمام اتصال، سوف يغير مجرى حياته: ماريا دل روزاريو كاساس، الملحقة الثقافية بسفارة كولومبيا، شهد لها وزير الخارجية الكولومبية بالكفاءة العالية، والذكاء المتوقد. وضعتْها ال CIA فى عام ١٩٨٢ تحت الدراسة والمراقبة، وبعد عشرة شهور أُضيفت إلى قائمة عملاء الوكالة.

إنها من أسرة عريقة فى كولوسبيا. كان أبوها عضوا مبجلا فى مجلس الشيوخ (سيناتور). وهى أيضا تتميز بالاحترام والتقدير كأستاذة للغة اليونانية وآدابها، والأدب المعاصر بجامعة إنديز من عام ١٩٧٦ إلى ١٩٨٢. يَذْكرها طلابها بالفطنة والثقافة الرفيعة، ويصفها الأساتذة والزملاء باحترام النظام والمسئولية. وخلال تلك الفترة، أقامت علاقات طيبة وثيقة مع كبار الكتاب والأدباء بالمنطقة، من بينهم: جابرييل جارسيا ماركيز، الحاصل على جائزة نوبل.

والغريب الذى ظل سرا غامضا: ما الذى يجمع بين أستاذة عاشقة للقراءة والاطلاع وتحصيل المعارف، وبين موظف غير مثقف، عازف عن الاستنارة بالمطالعة واقتناء الكتب؟. والسؤال الأهم والأخطر: من منهما جرجر الآخر

إلى مسار الخيانة الوطنية، وبيع أسرار الدولة؟. هل هى التى جندْته لحساب من يسيطرون عليها فى موسكو؟، أم هو الذى أغراها أولا للعمل ـ فى كولومبيا ـ لحساب الولايات المتحدة، ثم أغواها بعد ذلك بالعمل لحساب الروس؟. رجَّح بعض المحققين فى القضية أنه هو الذى بدأ، ثم تبعته هى، وسارت معه وبه بقية الطريق.

فى عام ١٩٨٣ تَفْقد مارى عملها فى السفارة الكولومبية، وفى المخابرات الأمريكية، بينما يُنقل الدريتش إلى مقر رئاسة الـ CIA، ليعمل حتى عام ١٩٨٥ رئيسا لفرع مكافحة التجسس السوفيتى. إنه ارتقاء فى المنصب، مع زيادة فى الواجبات والمسئوليات، ثم يُنقل إلى روما، مع التصريح له بالاتصال التليفونى للتحدث مع الموظفين الرسميين بالسفارة السوفيتية، وعقد لقاءات معهم. وتقضى قواعد العمل بوكالة المخابرات "CIA" بأن يتم إبلاغ القيادة بها صراحة ومسبقا بمواعيد تلك الاتصالات والمقابلات، ثم كتابة تقرير عنها بعد إتمامها. ومن هنا بدأ إيمس يُجرى اتصالات جانبية غير معلنة، ولا واردة فى تقاريره، وذلك فى غفلة من رؤسائه.

أول إشارة فى تقارير الوكالة الفيدرالية للتحرى (FBI) عن اجتماع إيمس بالسوفيت بدون تصريح ولا تقرير عنها، جاءت بعد ستة أشهر من زواجه بماريا روزاريو (خلال منتصف فبراير ١٩٨٦). وفى اليوم التالى عقب هذا الاجتماع أودع الزوجان (ايمس وماريا) مبالغ مجموعها ٢٤ ألف دولار فى أحد البنوك الأمريكية. وفى الوقت نفسه تقريبا، تلقت وكالة CIA، ووكالة FBI ثلاثة مؤشرات خطيرة، تفيد بوجود جاسوس داخل محيطهم، وذلك فى أعقاب اكتشاف بعض الأمريكيين الذين يتجسسون على الأراضى الأمريكية لحساب السوفيت، وهروب عدد منهم إلى موسكو قبيل إلقاء القبض عليهم. هل كان إيمْس وراء فرارهم السريع، محتفظا ببرود أعصابه؟.

فى الاختبارات الدورية التى تجريها الـ CIA على ضباطها كل خمس

سنوات، ومنها استخدام جهاز كشف الكذب، وفى اختبار عام ١٩٨٦ بالذات، أظهر الدريتش إيمس ثباتا متماسكا وهدوءا باردا. . لكن زملاءه لاحظوا تغيرا فى سلوكه. . فعلى الرغم من تكاسله الشائع، ظهرت عليه فى فترات بعد عام ١٩٨٦ روح الفروسية والإقبال على الشراب (الخمر) والرقص، وشوهد كثيرا فى مكتبه جالسا فى استرخاء، وهو يطالع ملفات قديمة عن مكافحة التجسس. كما أنه كان يلتقط منها معلومات تفيده. . كما أن ماريا ـ زوجته ـ كانت تكثر التردد على زوجات الدبلوماسيين، وتثرثر طويلا معهم، أما هو، فكثير الإقبال على الأماكن المتألقة الفاخرة، وكل منهما يضيف ودائع إلى حساباته فى بنوك سويسرا، وكولومبيا، وإيطاليا، بل إن بعض الودائع كان باسم والدة ماريا.

فلما رجعا إلى الولايات المتحدة عام ١٩٨٩، هو إلى مقر رئاسة الـ CIA، وهى إلى دراسة الفلسفة بجامعة جورج واشنطن، أخذا يرتِّبان لحياة ينعمان فيها بالأرصدة المتزايدة: شراء بيت نقدا (٥٤٠ ألف دولار)، وأثاث فاخر، وسيارة فارهة، ومربية لابنهما الصغير، يشترطان عليها أن تذهب به إلى خارج البيت، بمجرد حضورها فى التاسعة صباحا، ولا تعود إلا فى وجود أحدهما أو كليهما، وفى البيت غرف لا تدخلها مطلقا.

وحتى ذلك الحين، عام ١٩٨٩، لم تتوصل أجهزة الـ CIA، ولا FBI إلى معرفة (الجاسوس) المرجح أنه مزروع داخل وكالتيهما منذ ١٩٨٥. وأخيرا، بين عامى ١٩٩٠ ـ ١٩٩١، بدأت الشبهات تحوم حول الدريتش، واستطاعت الـ FBI أن تتسلل إلى الكومبيوتر الخاص بالدريتش فى بيته، وتعثر فى ذاكرته على رسائل خاصة منه إلى موسكو، وعثرت أيضا على بيانات وتقارير للوكالة، على جانب كبير من الأهمية والسرية، وعثرت كذلك فى أوعية القمامة على صور لرسائل موجهة إلى موسكو، وتبينت أن الدريتش إيمس سافر سرا إلى فنزويلا وكولومبيا لمقابلة محرضيه الروس، وتبادل رسائل معهم. وحين وضع تليفونه وجهاز الكومبيوتر الخاص به، وتحركاته هو وزوجته تحت المراقبة المستمرة، لم يعد فى الأمر شك، بل إن المدير بوكالة

المخابرات الأمريكية «إيمْس» جاسوس خفى خطير مأجور، تساعده زوجته فى الخيانة، وبيع أسرار الدولة..!.

إلى جانب متابعتهما - سرا - خطوة بخطوة ليل نهار، مراقبةً، وتنقيبا، وفحصا، واستماعا لاتصالاتهما التليفونية، استطاعت وكالة التحريات (أو التحقيقات) الحصول على الأدلة المادية (بالدخول على) أو المراقبة من بُعد لجهاز الكومبيوتر الإلكترونى الشخصى لإيمْس. ولم تُفصح الوكالة (مكتب التحرى الفيدرالى) عن كيفية التسلل إلى هذا الكومبيوتر، لكن الخبراء فى الإلكترونيات المتقدمة يرون أنها استخدمت إحدى الطرق المعقدة، لكنها ممكنة: مشاهدة الكومبيوتر من بعيد (بوسيلة من وسائل الرصد والتنصت المستخدمة فى التجسس): بالتقاط الموجات الكهرومغناطيسية التى تتراقص عبر شاشة الكومبيوتر الموضوع تحت المراقبة، ثم تحويل تلك الموجات إلى حروف وكلمات تظهر على شاشة تليفزيونية. بذلك يتمكنون من قراءة كل كلمة يكتبها الشخص المراقَب (بفتح القاف). وهذه الطريقة صعبة التنفيذ، لأنها غير قانونية، إلى جانب أنها تتطلب مراقبة تلك الشاشة لعدة أسابيع، ومراجعة شرائط الفيديو الخاصة بها (التسجيل التليفزيونى) لعدة ساعات، لمعرفة كل ما يفعله ذلك الشخص.

من المحتمل أنهم توصلوا إلى كومبيوتر إيمْس الشخصى، واقتحموا أسلوب تأمينه وتحصينه بتغيير فى الطريقة القديمة للتجسس: بعد دخول بيته، تم «زرْع» مخبر أو كاشف فى جهاز الكومبيوتر، يبث (يرسل) إيقاع كل ضغطه أو ضربة على أى مفتاح فى لوحته، وكل حرف بها، أو باستخدام طريقة أخرى أكثر فاعلية... وذلك بزرْع أداة تجسس، تتسلل إلى الكومبيوتر من بعيد، أى من موقع خارج البيت، وتستطيع أن تفتش فى ذاكرة الجهاز، وتستدعى كل المعلومات والبيانات والوثائق المسجلة بها، ثم ترسلها إما عن طريق البث اللاسلكى (كالراديو)، أو عن طريق توصيلها إلى جهاز التليفون الذى يرسلها إلى أجهزة الـ FBI الجاهزة للتلقى والتسجيل، وكل ذلك يتم تشغيله بالتحكم من بعيد

(بإشارات أو موجات اتصال خاصة)، إلى جانب تسجيل نُسخ من أسطوانات المعلومات الموجود فى بيت إيمْس، التى يحتَفظ بها مع الكومبيوتر، وبدون أن يلحظ صاحب الكومبيوتر مطلقا ـ ولو كان خبيرا فى التجسس مثل إيمس ـ ما حدث أو يحدث. . .

قُدم الدريتبش إيمس وزوجته ماريا دل روزاريو للمحاكمة، فآثر هو اتباع أسلوب الصمت المطْبق، وفضلت هى الاعتراف، مقابل إصدار حكم مُخَفَّف. ثم قرر الاعتراف بجريمته، اختصارا للوقت وإجراءات المحاكمة، مع ضمان إعفاء زوجته من العقوبة، لأنه هو الفاعل والمؤثر.

حُكم على الدريتش إيمْس بالسجن مدى الحياة، مقابل اعترافه، وأُسقط الاتهام عن زوجته إزاء اعترافهما بالجرم. وحيال موجة الغضب والسخط التى عمت جميع الأوساط فى المجتمع الأمريكى، أقسم المسئولون فى وكالة المخابرات (CIA) أن هذا الأمر لن يحدث بعد ذلك مستقبلا، ولكن لم يكد يمضى شهران اثنان، حتى كانت المفاجأة. . فى نوفمبر ١٩٩٦، أعلنت الوكالة أن «هارولد نيكولسون» حصل لنفسه على ١٨٠ ألف دولار من الروس.

ومن هو؟!.

إنه أستاذ تدريب الملتحقين الجدد بوكالة المخابرات الأمريكية على أساليب الجاسوسية، والجاسوسية المضادة، وفق برنامج يستغرق نحو عام، وتبلغ تكاليف المتدرب الواحد ١٥٠ ألف دولار. كان نيكولسون موضوعا تحت المراقبة لعدة شهور من وكالة التحقيقات والتحريات الفيدرالية (FBI)، بعدما حامت حوله ظلال من الشك. وبينما حصل إيمس من الروس على نحو ٢,٥ مليون دولار، فإن ما حصل عليه نيكولسون كان مجرد بداية لطريق لم يتم.

وما أسوأه من طريق. . . .

وفى فرنسا كانت المهزلة. . المذهلة. .

كيف يتسنى لرجل باع خُلقه وضميره ووطنه، واستمر يبيع ويبيع سرا

لسنوات، مقابل دراهم معدودات، أن يصبح يوما وزير «دفاع» لبلده.. المسئول الأول عن جيوشها على الأرض، وفى البحر، وفى الجو، وعن سلاحها الذرى، وقت الحرب الباردة، حيث الصراع المستتر والمعلَن بين الغرب والشرق؟.. وكيف غفلَتْ عن ماضيه أجهزة الأمن والتحرى والاستخبار والمخابرات، قبل أن يتسلم مهام منصبه.. كوزير دفاع، أو حرب؟، وماذا فعلت السلطات العليا فى دولته، وبالتحديد.. رئيس الجمهورية، حين علم مالم يكن يعلم، عن صديقه المقرب (هذا الوزير)؟!.

على العكس من الأسلوب المتبع فى الولايات المتحدة الأمريكية، الذى يلتزم بكشف الحقائق - مالم يكن فى ذلك ضرر على أمنها وسلامة مصالحها وأراضيها - وإطلاع المواطن الأمريكى على ما جرى أو يجرى من مثالب، مهما كان متعلقا بشخص كبير، أو عظيم، أو «مهم».. فإن فرنسا تلتزم بقاعدة أو مبدأ معروف مفضل لدى صديقتها اللدود بريطانى: No pain, No complain أى: لا تتألم إذا جُرحت، ولا تشكو إذا ابْتُليت. وهذا يقابل القول الحكيم المأثور: «إذا بُليتم.. فاستتروا».. لكن يُراد به الابتلاء، أو البلاء غير المتعمد أو المقصود.

وفى فرنسا دائما: لا تعلق الدولة مطلقا لافتات عليها ما يمس «شرف» السلطة، بمعنى (أن تنشر غسيلها غير النظيف)... فتظل «البقع» السوداء الكريهة المقيتة حبيسة الخزائن والأدراج الموصدة، فربما تنساها ذاكرة التاريخ، عملا بمبدأ، «ما فات مات».. وهذا غير صحيح.. فهناك فرق بين ابتلاء الفرد، وبلايا القيادة، بين جريمة الفرد كفرد، وبين جريمته هو نفسه إذا كان فى موقع قيادة أو سلطة، وإلا كان معنى تولى القيادة - فى أى موقع - واحتلال السلطة على أى مستوى يضمن تلقائيا حصانة وحماية، مهما ارتكبت من أخطاء، أو صنعت فضائح، فلا يعاقب الآثم المجرم، ولا يستفيد القادمون من بعده بسد منافذ الخطأ والخطيئة، وتصحيح مسار العمل والوظيفة، ولا ينتفع المجتمع باسترداد حقوقه (ماديةً ومعنويةً).. وإليكم الحكاية، أو الواقعة المدهشة التى شذت عن المألوف فى فرنسا والمعهود..

قصر الإليزيه.. مقر الرئاسة الفرنسية..

فى يوم من خريف عام ١٩٩٢، طلب رئيس إدارة مكافحة التجسس ومراقبة أمن الوطن (DST) السماح له بمقابلة عاجلة مع رئيس الجمهورية فرانسوا ميتران. وبين يديه فتح حقيبة تحتوى على أحد أسرار الدولة الخطيرة المتعلقة بشرف ومهابة الجمهورية الخامسة الفرنسية. ماذا تحوى؟..

لنرجع قليلا بالزمن والأحداث إلى الوراء.....

بعد فترة قصيرة من سقوط حائط برلين عام ١٩٨٩، الذى كان يفصل بعناد وغباء وقسوة بين شطريها وأهلها، وبسقوطه سقط تاريخ دموى ساحق وماحق مشين مهين لروسيا السوفيتية، ودول كتلتها الشرقية، بُعَيْد هذا السقوط، جاء إلى رئيس مكافحة التجسس الفرنسى من يحمل إليه حافظة (ملفا) عليها خاتم «سرى للغاية». فى الحافظة وثائق تحتضن سرا رهيبا عجيبا: استخدام وتمويل رجل سياسى فى التجسس، كان يشغل منصبا على أعلى درجة من الأهمية والحساسية فى الدولة أثناء فترة الرئاسة الأولى لميتران (تولى الحكم لفترتين متتاليتين). إنه وزير الدفاع الفرنسى شارل هرنو، من عام ١٩٨١ إلى ١٩٨٥، أحد الأصدقاء المقربين إلى الرئيس.

فى ذاك اليوم الخريفى، وفى مكتب رئيس الجمهورية، شهد جاك فوريه رئيس إدارة مكافحة التجسس أثر هذه المفاجأة المفزعة على الرئيس ميتران، إذْ هب واقفا كالمذعور، وتمتم بكلمات: «أبعْد بيلات، هرنو...؟»، ثم ماتت الكلمات فى فمه.. إن هذا الصديق الأثير عنده، الذى حزن لوفاته منذ عامين، كان موضع ثقته منذ سنوات بعيدة.. فهل هذه مكيدة للطعن فيه وتشويه سمعته - والموتى لا يتكلمون أو يدافعون عن أنفسهم - وبالتالى تلطيخ سمعة ميتران ذاته، خاصة والمناخ السياسى العام ليس فى صالحه، حتى إنه صدر عنه كتاب يحمل عنوانا واضح الدلالة[١] «ميتران والأربعون لصا»؟.

---

(١) على وزن القصة العربية الأسطورية الشهيرة «على بابا والأربعين حرامى»..

إن الرئيس بطبعه لا يثق كثيرا فى تقارير الإدارات ذات المهام الخاصة، مثل إدارة مكافحة التجسس، ويتلقاها فى حذر. ورئيس هذه الإدارة يعرف ذلك. على أية حال.. هذا واجبه: استخرج من بين الأوراق والوثائق تقارير واردة من دول شرقية، وتفاصيل مبالغ تسلمها شارل هرنو. وشرح للرئيس أن التحريات الدقيقة للغاية التى أنجزتها إدارته (DST) أثبتت ـ بلا أى شك ـ صحة هذه المعلومات والوثائق. وبعد حوار طويل، ثم صمت أطول، قال ميتران فى النهاية: «إننا لن نستطيع إعادة صُنع التاريخ... فلنعتبر هذا ـ أيها السيد المدير ـ سرا من أسرار الدولة».

معنى ذلك: أنه أمر نافذ لا رجعة فيه، أن توضع تلك الحافظة فى خزانة محصنة، وتظل حبيسة بها، لا يطَّلع عليها أحد، ولا يُكشف أبدا سرها.. لكنه سر تعرفه جيداً أعداد قليلة، لا تزيد عن عدد أصابع اليد، من المعنيين بمكافحة التجسس، وهم يعلمون أيضا ومسبقا رد الفعل عند الرئيس... إلا أنه فى نوفمبر ١٩٩٦، وبعد بحث مستفيض، وتنقيب مضن فى فرنسا وخارجها لعدة شهور، استطاع اثنان من الصحافيين جمع المعلومات الموثقة، ونشرتها مجلتهما «الإكسبريس» الفرنسية المشهورة، ثم كان لها صدى فى الأوساط الصحافية والسياسية بعيد المدى. خلاصة تلك المعلومات: أن وزير دفاع فرنسا كان سابقا، ولفترة لا تقل عن عشر سنوات، عميلا (أى جاسوسا) لموسكو.

فى عام ١٩٥٣، كان شارل هرنو فى سن التاسعة والعشرين حديث الممارسة للسياسة، وثيق الصلة بالماسونية، حين أنشأ «نادى اليعاقبة»، المؤلف من مجموعة، تغلب عليها النزعة إلى الإثارة والحِدة، والميل إلى اليسار، أى الفكر الاشتراكى الشيوعى، مع ادعاء الرغبة فى التجديد أو التحديث. إنه شاب وسيم جذاب، يحب التنعم، والحسناوات من النساء. وهو فى حياته الخاصة والعامة يلاقى متاعب وصعاباً فى تحقيق رغباته، خاصة فى ميدانين مترابطين: السياسة، والنساء. وهو فى الوقت نفسه يكتسب راتبه من عمله بالمركز القومى للتجارة الخارجية. ومن واقع رغباته المعلنة، وسلوكه الواضح المستمر فى

تحقيقها، إلى جانب صفاته الشخصية المميزة، كالذكاء، واللباقة، والسعى إلى مستقبل شخصى أفضل، كل ذلك لفت إليه أنظار عملاء وجواسيس الكتلة الشرقية (آنذاك)، فأخذوا يدرسون جوانب قوته وضعفه، وقد توقعوا له مستقبلا مرموقا.

بالتحديد، فى ١٣ مارس ١٩٥٣، يظهر اسم شارل هرنو للمرة الأولى فى تقرير للأجهزة السرية البلغارية (KDS). كاتب هذا التقرير شاب دبلوماسى، قابله وقدم نفسه إليه باسم «فينو جرادوف»، (اسمه الحقيقى: رايْكو نيكولوف)، السكرتير الثالث بسفارة بلغاريا فى باريس، ويعمل بها منذ عام ١٩٥١. إنه فى حقيقة الأمر أحد رجال المخابرات البلغارية، ولم تكن هذه المقابلة مصادفة أو عبثا. إنها مرتبة ومدونة فى تخطيط أجهزة الأمن الخاصة فى دول الكتلة الشرقية آنذاك. كانت تلك الأجهزة تخطط وتنفذ لاستقطاب عدد من الفرنسيين الذين يشغلون مناصب رئيسية كبيرة، والرهان على عدد من الشباب الذين يتُوقع لهم أن يلعبوا فى المستقبل أدوارا سياسية مهمة ومؤثرة... أى أولئك الذين سيكون بين أيديهم مستقبل فرنسا، وفى كل المجالات.. فهذا إذن ـ فى تقدير نيكولوف ـ شارل هرنو واحد من هؤلاء..

بعد هذا اللقاء الأول، كان على «فينو جرادوف» أن «يقشر السمكة».. طلب من «صديقه» شارل أن يكتب له ـ للاستنارة.. ـ بعض الملاحظات على الموقف السياسى الفرنسى، حتى يسترشد بها، ويخدم بها مصالح فرنسا، ويلقى تقديرا من رؤسائه.. هكذا تتابعت بانتظام مدونات هرنو وملاحظاته، خاصة فيما يتعلق بنادى اليعاقبة. وسجل فيها أيضا آراءه، وانطباعاته عن بعض الزعماء السياسيين، ومنهم فرانسوا ميتران.

هكذا وقع شارل هرنو فى الفخ.. لكنه لم يعد فخا عندما بدأ يتسلم من عام ١٩٥٤ مقابل تلك المدونات مبلغا شهريا مقداره خمسة وعشرون ألف فرنك. المسألة إذن واضحة: معلومات وتقارير تدوَّن بإرادة وعن طواعية، ويتسلمها شخص أجنبى يعمل فى سفارة دولة (حتى ولو كانت غير معادية، أو تتبع

فكرا ومنهجا وسياسة مختلفة تماما) مقابل مبلغ من المال. ماذا يسمَّى هذا؟.. ثم ارتفع الأجر، أو «المعلوم» فى بعض الحالات ذات القيمة إلى ٤٠ و ٥٠ ألف فرنك.

وضع شارل هرنو فى ملفات المخابرات البلغارية تحت اسم مستعار «أندريه». وتتضح خطورة هذا العمل، إذا علمنا أن المخابرات وأجهزة الأمن البلغارية كانت منذ بداية الحرب الباردة بين دول الغرب والشرق، ذراعا قوية بالنسبة للمخابرات السوفيتية (KGB) وفى الحقيقة، كان رايكو نيكولوف أحد وكلاء «الأخ الأكبر»: الاتحاد السوفييتى.

من جانبه، أكد مسار شارل هرنو السريع فى الحياة السياسية، توقعات وآمال الذين وضعوه تحت المنظار، فلم يطل بهم الانتظار.. ففى أوائل فبراير ١٩٥٦، قفز سياسيا بانتخابه نائبا برلمانيا (بالمجلس الوطنى)، تحت مظلة «جبهة الجمهورية». وكما جاء فى كتاب صدر عنه، فإن تمويل دعايته الانتخابية جاء من «تبرعات» من أصدقائه اليعاقبة، ومن «مناصريه» الخيرين الكرماء.

وكان هؤلاء «الأصدقاء الكرماء» بالفعل أسخياء معه: فبعد أن أصبح نائبا، واتَّخذت مدوناته ـ أو تقاريره ـ المنتظمة قيمة أكبر، وأهمية أعظم، زادوا هم فى العطاء المنتظم.. بمعنى: كلهم نظر.. فارتفع أجره إلى ١٠٠ ألف فرنك، ثم إلى ١٥٠ ألف، إلى أن جاء نوفمبر ١٩٥٦، فرحل من استأجره ـ للتجسس وهو نيكولوف ـ إلى بلده، وتَسَلَّم المهمة من بعده ـ مباشرة، وبلا لف، أو دوران ـ فلاديمير إيفانوفيتش إيروفيف، مستشار السفارة الروسية فى باريس، وهو فى حقيقته أحد قمم التجسس السوفيتى فى فرنسا. إن هذا «المستشار» سريع التحرك، وافر النشاط، دائم التعرف وتوثيق الصلات مع المفكرين والأدباء والفنانين الفرنسيين، وظهر فيما بعد أن أصابعه لعبت فى الخفاء أدوارا مهمة فى بعض الأحداث والقضايا الكبرى آنذاك.

أصبح شارل هرنو مقبولا من السفارة السوفيتية، وتحت رعايتها. ولما كان

متحالفا ـ سياسيا ـ مع الحزب الشيوعى الفرنسى، فقد اشترك عام ١٩٥٦ فى وفد، سافر إلى موكسو باسم وفد السلام العالمى، لمقابلة الرئيس السوفيتى آنذاك نيكيتا خروشتشيف.

لاحظ أعضاء الوفد أحيانا سلوكا مريبا من شارل وهو فى موسكو. مثلا: أمام فندق روسيا القريب من الميدان الأحمر، وفيه ينزل أعضاء الوفد، ركب شارل سيارة أجرة (تاكسى)، دون استئذان من رئيس الوفد، الذى كان واقفا مع بعض الأعضاء، ثم غاب عنهم من المساء، حتى الرابعة صباحا. وكان تعليله لهذا الاختفاء، بعد عودته: «إن بنات الليل فى موسكو يفضلن (إتمام الصفقة) فى التاكسى»..

وفى باريس، استمر تلقيه للأموال من المخابرات الروسية بين ١٠٠ و ١٥٠ ألف فرنك باسم أندريه. وسياسة العطاء التى تتبعها تلك المخابرات لا تتغير: دفع المال بالقدر المعقول الذى يفى باحتياجات العميل، بلا زيادة، ولا إفراط، حتى لا يلفت إليه الأنظار.

عندما عاد الجنرال دو جول إلى الحكم ـ رئيسا للجمهورية ـ وحل المجلس الوطنى (البرلمان)، وأجرى انتخابات جديدة، تقدم إليها شارل هرنو مرشحا، وأمده «أصدقاؤه» الذين ينادونه باسم أندريه، بمبلغ ثلاثة ملايين فرنك لتغطية نفقات حملته الانتخابية، ولكنه سقط ـ مثل فرانسوا ميتران ـ ولم يحصل إلا على ٣,٥٪ من الأصوات فى دائرته.

فى يوليو ١٩٦١ تعرض شارل للاغتيال، بتحريض من منافسيه، حيث وضعت قنبلة موقوته تحت سلم بيته، لكنها انفجرت بعد نزوله بدقائق.. فقررت السلطة الحاكمة وضع حراسة دائمة لحمايته.. فطلب من «أصدقائه» أن يكُفوا عن الاتصال به، إذ كيف يتم هذا الاتصال، ومعه حارس يلازمه على الدوام؟!، لكن «الأصدقاء» لا يبتعدون هكذا بسهولة..

أسلمته المخابرات السوفيتية إلى المخابرات الرومانية (كانت رومانيا إحدى

دول الكتلة الشرقية الشيوعية). ولماذا رومانيا؟، لأنها فى ذلك الوقت كانت فى تقدير الفرنسيين أكثر دول المجموعة الشيوعية تقدما بزعامة شاوشيسكو، ولها علاقات طيبة ومصالح كثيرة متبادلة مع فرنسا.. فكان ميخائيل كارامان رئيس الجاسوسية الرومانية فى فرنسا، الذى يعمل تحت قناع المستشار بالسفارة الرومانية بباريس، كان معروفا مألوفا فى العاصمة الفرنسية، لشخصيته الجذابة، ولعلاقاته الوطيدة التى كونها طوال أحد عشر عاما فى منصبه هذا، مع عديد من الشخصيات والمشاهير وأصحاب المناصب الكبيرة والنفوذ، فكان «طبيعيا» أن يلتقى بهرنو، ويتبادلا الزيارات «الودية». وكانت نتائج تلك الزيارات تدوَّن فى تقارير تُرسل إلى بوخارست (عاصمة رومانيا)، ومنها إلى موسكو. فى هذه التقارير تغير اسم هرنو من أندريه، إلى «دينو».. وذلك فى عام ١٩٦٢.

زاد من أهمية شارل هرنو فى نظر المخابرات الرومانية والسوفيتية معا، مسارعته للاشتراك فى تأسيس الحزب الاشتراكى الفرنسى، بزعامة فرانسوا ميتران، وأصبح مقربا إليه. ولذا.. ابتداء من مارس ١٩٦٣، عاد «دينو» ليكون على اتصال مباشر بالمخابرات السوفيتية متعاظمة القوة والنشاط (KGB). وهنا يبدأ الغموض، إلى متى استمر هذا الاتصال؟. وإذا كان قد توقف، فمتى؟، ولماذا؟. وإذا لم يكن قد توقف، فكيف تابع مسيرته؟، وإلى أى مدى؟... إن الحافظة (الملف) التى وُضعت أمام الرئيس الفرنسى ميتران، ليست فيها إجابة عن تلك الأسئلة. وربما احتاج الأمر إلى حافظة، أو «دوسيه» آخر.. من موسكو..

على أية حال، لم يَضعْ «رهان» المخابرات الروسية، ودول الكتلة الشرقية هباء، ولا كان فى غير موضعه... ففى إبريل من عام ١٩٧٤، يصبح هرنو خبير الشئون العسكرية داخل الحزب الاشتراكى الفرنسى، ثم رئيسا للجنة الدفاع بالحزب. إنه هو الذى سيحدد سياسة الحزب العسكرية والنووية (أى استراتيجية الأسلحة الذرية). استقال من وظيفته بالمركز القومى للتجارة

الخارجية، ليتفرغ للعمل السياسى. وفى عام ١٩٧٧ يُنتخب عمدة إحدى المدن، ثم فى العام التالى نائبا بالمجلس الوطنى (البرلمان)..

ولما نجح ميتران فى انتخابات الرئاسة عام ١٩٨١، كان طبيعيا أن يختار شارل هرنو وزيرا للدفاع فى الوزارة التى رأسها بيير موروَا. لقد أصبح «أندريه ـ دينو» الوزير المسئول عن الجيش، برا، وبحرا، وجوا، وعن الأسلحة الذرية واستراتيجيتها، وعن أجهزة المخابرات والأمن الحربى، وعن استراتيجية الدفاع عن فرنسا.

فرِحَت بذلك وهللت المخابرات الرومانية، التى حولت بلدها (رومانيا) إلى دولة بوليسية رهيبة شديدة السيطرة... ففى أول سبتمبر عام ١٩٨٢، تلقَّى الرئيس الرومانى نيقولاى شاوشيسكو (الذى أعدمته هو وزوجته ثورة ١٩٨٩، التى أطاحت بالحكم الشيوعى»، تلقى تقريرا من جهاز المخابرات يذكِّر فيه بتاريخ شارل هرنو، وبثقله، وقيمته، وتأثيره فى تشكيل الحكومة الفرنسية الجديدة. ويضيف التقرير أن المخابرات الفرنسية كانت على وشك تنفيذ حملة ضد رومانيا.

وعندما سقط النظام الشيوعى الرومانى فى أواخر ديسمبر ١٩٨٩، بدا واضحا على شارل هرنو الاكتئاب والهموم. هل كان يخشى أن تكشف الثورة الرومانية عن ماضيه، المسجل والمحفوظ بأرشيف «السيكوريتات»، أى جهاز المخابرات الرومانية؟.. بعد ثلاثة أسابيع فقط من قيام هذه الثورة بإعدام شاوشيسكو، أى فى ١٧ يناير ١٩٩٠، أُصيب شارل هرنو بأزمة قلبية مفاجئة أثناء حضوره اجتماع التضامن مع الأرمن، وسقط ميتا، صامتا إلى الأبد!.

obeikandl.com

# ليلة مع الشيطان

«جان كو»..

كاتب صحافى مرموق، له مكانة وشهرة فى فرنسا والغرب طوال الثلاثين عاما الماضية: مقالة، ونقدا، وتحقيقا، وتحليلا، وله أسلوب خاص، وقلم متميز، شديد التحامل على العرب وموروثاتهم. لاضير.. فهذا شأنه، أو رأيه، الذى لن يقدم، ولن يؤخر، فمن قبله ـ فى هذا الجانب ـ تحامل وتحايل بالطعن المغلوط كثيرون، ومن بعده (وقد مات مؤخرا) سيأتى مثله أكثر وأكثر، إذ لن تخلو الأرض من كاره، أو حاقد، أو صاحب هوى غير منصف.. وإن كان هؤلاء جميعا يعلمون تماما العلم أن من موروثات العرب الثابتة الخالدة قانونا سماويا قرآنيا يقول: «ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوى....»[1].

لكنه هنا يتناول موضوعا كتبه فى عام ١٩٨٠ تحت عنوان:

«ليلتى مع شهود إبليس»[2]، لا صلة له بالعرب، بل فيما يحدث فى بلده وبلاد أخرى فى دول الغرب: أعراض مرض اجتماعى غريب خطير، سمعنا به مؤخرًا فى بلادنا، وقد أشرنا إليه ـ قبل أحاديث قومنا ـ فى كتابنا: «أنبياء نهاية القرن العشرين».

قال «جان كو» ما نصه....

كشرط مسبق، بعض النصائح العملية القليلة. لو أردتَ أن تَشهد «طقوسا»

---

(١) أى: لا يكن بُغضكم لقوم سبباً فى ظلمهم، أو عدم إنصافهم.

(٢) Ma Nuit Avec Les Temoins de Lueifer.

إبليسية فى صحبة هواة مص الدماء، أتباع الشيطان، فإنى ناصحك فى هذا الفصل القاسى من السنة (كان شتاء) أن ترتدى ملابس مدفئة... ففى الواقع، تجرى الطقوس دائما فى جبانة (مدافن). وحينئذ فى هذا الجو الذى لا يرحم، يقشعر الجسم، سواء من الرعب، أم على الأقل - وأقسم لك - من البرد. ويمكن أن تتزود أيضا (إذا كنت مدخنا) بالسجائر، أو بتبغ الغليون (بايب)، لأن المقاهى ومتاجر الدخان فى الضواحى أو الريف ليلا ستكون مغلقة، وذلك إما لشد أزر النفس الضعيفة - مثلى - وإما لتسخين العظام. كما أنصح أخيرا بارتداء حذاء «بوت» لين مرن - إذا ما دعت الحاجة إلى تسوّر حائط المقبرة - وأن يكون نعله من المطاط، حتى لا تُحدث خطواتك طنينا فوق الأرض الجليدية. وشرط مسبق آخر: أن تتعهد لاتباع طائفة الشيطان - الذين رضوا بك ضيفا - ألا تكشف مطلقا عن أسمائهم، وأن تُضفى شيئا من الإبهام على ما سوف تكتبه عنهم، حتى لا تُتاح للشرطة العامرة بالدهاء أن تنقض عليهم، وتتهمهم بانتهاك حرمة المدافن، وممارسة انحرافات شاذة ضالة. وهذا ما فعلتُه. وعدت وتعهدْت.

وشرط ثالث: أن تلتزم بألا تبتكر شيئا مطلقا تضيفه من عندك. ولك الحرية بعد ذلك أن يكون لك رأيك، دون أن تضع فى حسبانك ما رأيتَ وما سمعتَ، وهذا ما أشك الآن فيه، كما سيأتى.

انتهت الشروط..

وعلى هذا.. عندما تُدعى لحفل (بارتى) مع «قوى الليل»، لاستحضار الأموات، وارتشاف الدم، يُحدد لك موعد فى غرفة استقبال شقة باريسية صارمة، وتَحضر مسبقا. الكل يرتدى ملابس سوداء. المضيف - وللتبسيط سوف أسميه: الكاهن الأكبر - يستقبلك بنفسه. «هل تلبسون السواد دائما؟».

«نعم، دائما.. من سن السادسة عشرة».

يقدِّمك إلى سبعة أو ثمانية من أعضاء الجماعة، شباب بين سن الخامسة والعشرين والثلاثين، من بينهم ثلاث فتيات حسناوات فاتنات. كل الوجوه

هادئة ومكشوفة. يعتذر الكاهن الأكبر مقدما، لأن حفل الطقوس الذى سوف أشهده فى الحال تغير نسبيا.

«لن يكون عددنا كبيرا هذه الليلة، لأن كثيرا من الأصدقاء رفضوا الحضور، بعد ما قيل عنا فى البرنامج التليفزيونى كما تعلم، حيث إننا وافقنا من قبل على تصوير طقوسنا لفريق من التليفزيون...».

ـ ولماذا وافقتم؟.

ـ «لأننا قدَّرنا أن مجرد مشاهدة شعائرنا ربما تكون كافية لإيقاذ انتباه الناس نحو كائنات الليل فى كل بيت، لكن مُنع عرض الفيلم، وتحرك رجال الشرطة. ولذا.. أخذ بعض الأصدقاء حذْرهم الشديد من كل إعلان أو دعاية.. فمعذرة.. معذرة..». هذا ما كان. على أية حال.. لايهم العدد كثيرا.

على حوائط الشقة قليلة الضياء، بعض الرسوم التى أظن أنها شيطانية. على مائدة ملتصقة بالحائط ـ فيما يشبه المذبح الكنسى ـ ترتفع رأس كبش ضخمة جميلة الصنع، فهى من الخزف اللامع.

المنخاران مفتوحان، والنظرة حادة كالسهم، الجبهة معصوبة بشرائط «مقدسة»، فهو حقا جميل هذا الكبش. وأنا أحب الكباش. على حراسته يسهر عدد من الشمعدانات، والنجمة السحرية الخماسية، وكأس يتدفق منها دم قربان ضخم، وتمثال «لذيل»، وسيفان مع خنجر يحميهما. على الأرض شىء على شكل صندوق مغطى بقماش أسود، تنطلق منه بين الحين والحين ما يشبه صرخات مختلطة لفئران تحتضر، أو قط يغلى حيا فى ماء يفور، أو صوت مبحوح لطائر يختنق. لا تطرح أسئلة. شاهد، وتأمل فقط!.

«أنتم إذن (شهود إبليس)، وعباد الشيطان، وأتباع مصاص الدماء؟». من الواضح أن...

«نعم.».

ـ أهو تنظيم جماعة؟.

ـ أيضا نعم بالتأكيد.

«هل هو السحر الأسود؟»

ـ قطعا لا. هو بالأحرى السحر الأحمر، سحر الدم الذى يمهد لقدوم «دراكولا»[1]: سيد فلاتشى أمير الأموات ـ الأحياء، ولىُّ الحياة والموت، وبالنسبة للمشتركين فى الخلود، الشخصية الشهيرة المتألقة فى امتصاص الدماء، التى تعتبرنا ببساطة ـ أنتم أيها القراء، وأنا معكم ـ مجرمين. أقول ببساطة، لأنهم شرحوا لى. ليس الأمر بهذه البساطة. قالوا لى (وليغفروا لى تقريب المعنى فيما أطلعونى عليه من أسرار): إنه يجب قبل كل شىء قهر الموت. أليس كذلك؟... تبديده فى الهواء. وماذا يكون الموت؟. لاشىء. ضد إرادة الحياة، لا شىء مطلقا. يجب إذنْ اجتياز حائط (أو حاجز) الموت بكل الإرادة، ومن أجل ذلك... عَقْد معاهدات تحالف مع الذى يكمن خلف القبر. وفى الواقع، لا ينتظر المرء «اليقظة»، دون الارتباط اللازم بغياهب «الظلمات»، (وهذه الكلمة دائما مبجلة). بالطبع، هناك اللاشعور، لكن يلزم المضى إلى ما هو أبعد من ذلك... نحو الأجزاء والمواقع التى يغلب على الظن أنها لا تُستعمر، بدءا بتمزيق رداء المسيحية الكهنوتى الذى تسحق الكائن الإنسانى منذ ألفى عام:[2] المسيحية التى يعتبر قداسها شريرا بالقياس إلى الوثنية المقدسة، المسيحية «التى لم تستطع أن تفعل شيئا»، المسيحية التى يجب أن تُنتهك وتُخالف بإقامة حفلات الطقوس، التى هى الفصل الأخير من المخالفات.

ـ فهمت، فهمت..... وهل عددكم كبير؟.

ـ نحن فى باريس عشرات كثيرة من الأعضاء. ولنا أصدقاء (على شاكلتنا) فى بريطانيا، وفى الولايات المتحدة. ونحن لا ندعو علانية إلى مذهبنا، حتى لا ينجذب إلينا كثير من المعتوهين....

ـ آه.. وأنتم تقدسون دراكولا. وعنه، فأنتم من مصاصى الدماء؟.

ـ نعم، مص الدماء كعلاقة أو صلة مغناطيسية، ولكن هناك وسائل أخرى، غير التضحية بقربان بشرى للفوز بالخلود: الانتصار على الموت الدميم، وأن

---

(١) ينسب إليه سلوك وأعمال مفرطة فى الوحشية والشذوذ، واشتهاء مص الدماء.

(٢) تنويه: إننا ننقل النص بأمانة، حتى تستبين الأمور للقراء، وللباحثين، ولمن يعنيهم هذا الشأن، بلا إضافة رأى من جانبنا، أو تعليق، أو إخفاء لبعض الحقائق، وإن كانت شائنة مقززة. ومن جانب آخر... نحن نجل المسيح عيسى بن مريم ـ عليه السلام ـ المبشر، رسول المحبة والإنسانية، فسلام عليه يوم ولد، ويوم يموت، ويوم يُبعث حيا.

نجعل من الإنسان إلها، فتُستبدل مثلا الضحية الإنسانية بحيوان: قط، أو ديك، بحيث يستخدم الدم كخاتم توثيق لعهد التحالف.

ولكن دراكولا؟.

ـ دراكولا.. جيلْ دوريه... ليس بسبب جرائمه المفزعة التى لا تُحصى، ولكن بسبب إفراطه... ورغبته المتألقة للمضى أكثر بُعدا، ليفعل الأفعال المطهرة.. للإرادة الصافية النقية قبل الأفعال. هل فهمت؟.

ـ ربما.... هكذا قُلت.

ـ ولقد علمنا عن وجود مكان لم يُنتهك، عاش فيه إنسان، وهو دراكولا نصير العلوم الملعونة، وليس له من هدف، سوى اجتياز حدود الموت، والدخول حيا فى الخلود الأبدى. إنه «الكاهن الأعظم للظلمات»، إنه عدو الله، تنبأتْ به الكتب السماوية، فهو المسيح الأسود الذى ننتظره اليوم، والذى نستدعيه الليلة فى المقابر، بتقديم قرابين من الدم فوق أدمغة (أمخاخ) مفتوحة مكشوفة، وضعنا فى جوفها ترابا جمعناه من مقبرته فى ترانسيلفانيا.

ـ ولكن اسمح لى، ليس هذا بالأمر الميسور... الجمارك..!.

ـ نعم ، لقد دُهشوا فى الجمرك، ولكن ليس هو على أى حال من المخدرات....

**عند المقبرة..**

أكداس من اللوم والتقريع المفرط. أخطر ما فيها الجانب «الإنسانى» الهزلى، وأسلوب «الخير»، و«الشر». والمعنى «الإنسانى» هنا لا وجود له فى الواقع، إذ لا «قيمة» له.

«لماذا؟».

ـ لأنه عند البعض.. لا وجود للخير ولا للشر، فلكل منهما دوره. من جهة أخرى.. عند الكتل الجماهيرية، وكما هو معروف فى الحياة اليومية، لا ننكر أن هذا مطلوب وضرورى. أما عندنا، فليس الأمر كذلك. هل تفهم؟.

ـ ربما.. هكذا قلت. لكن، هل يهتمون بالسياسة.. بمشاكل العالم؟ .

هز كتفيه قائلاً: إنها غير ذات قيمة. طُرْفة مثيرة للعب اليومى المعتاد

لتدبير شئون العالم. أما عندنا، فلا. فى النظام الروحى، لا معنى لكل هذه الأمور.

- «هل نذهب؟».

- «هيا بنا».

- «إلى أين؟».

- «سوف نذهب الليلة إلى جبانة صغيرة على بعد نحو ثمانين كيلو مترا من العاصمة، ومعزولة عن القرية. يوجد بها ثلاث مقابر «لفرسان الهيكل».

- سألت: «هل صلتكم وثيقة بالمقابر؟».

- «لدينا سبع أو ثمان جيدة جدا فى المنطقة الباريسية، وهى مقابر ملعونة أصلحناها..».

ثم رتب الكاهن الأكبر - بحذر شديد - حقيبة، وضع فيها أدوات الطقوس. ودس كل واحد منهم تحت ذراعه عباءة، وأقنعة، ثم حملوا الصندوق الذى تصدر منه الأصوات الغريبة المختلطة، وتهتز بداخله دجاجة مقيدة الرجلين. يا للمسكينة!.

مَرقت السيارة عبرالضواحى النائمة. فى سيارتى اصطحبت الكاهن الأكبر، وتفرقنا. سألته عما إذا كان من العسير أن يكون عابدا لإبليس ودراكولا فى هذا العالم، وهو على هذا النحو، ثم قلت: «من الجائز اعتباركم شائنين، أو ملوثين تماما. أليس كذلك؟».

- « بالتأكيد.. إن استحضار غموض الظلمات فى القرن العشرين، والتطهر من دجل وخداع ونفاق ألفى عام، وإنكار العقل المتاجر بالزمن، وعدم الاعتراف بغير الروح الكونية، ولا سبيل إلى الاتصال بها إلا باختراق القوانين والنظم، واحتقار هذا العالم المندفع نحو الانهيار، هذا كله لا يحوز القبول».

- «وهل كانت لكم تصادمات مع الشرطة؟».

- نعم. ومن الصعب الخروج منها.. وعليك أن تتقبل الاتهام بانتهاك الحُرمات الخاصة عند دخولك المدافن، والمخاطرة بدخول السجن، أو أنك

تحاول أن تشرح لهم ـ مستسلما ـ بأنك تمارس طقوسا مقدسة، وأنك عابد للشيطان، وتلك مغامرة غير مأمونة.

ـ أين تمضى تلك السيارات المسرعة ليلا فى الظلمات، وفى شهر يناير؟.

ـ نحو مقبرة مهجورة.

ـ ومَن ركابها؟.

ـ رجال ونساء يستحضرون «قوى الليل والموت».

ـ وماذا فى حقائب السيارات؟.

خبز القربان المغموس فى الدم، وعظام بشرية، ودجاجة.

قلت فى نفسى: أيتها السيارات التى تمرق من جانبنا.. أيها القرويون الذين يعلو شخيركم فى بيوتكم المتواضعة!، وأنتم أيها العسس (شرطة الليل).. يا من تلعبون الورق (الكوتشينة) فى مقر عملكم!، ويا رجال الدين النائمين باسترخاء فى بيوتكم الفاخرة الملحقة بدور العبادة، آه لو تعلمون..!.

وتمضى سياراتنا.

متاهة متشابكة من الطرق الضيقة المظلمة... وأخيرا غيضة (أشجار كثيفة ملتفة)، ثم بوابتان عاليتان من الحجارة الباهتة. إنها هنا. المدافن. والصمت المطبق. كل شىء ساكن أخرس. وهناك بعيدا ـ ولن أنسى ـ كلب مزرعة أخذ ينبح، لكن نباحه الفَزِع اليائس أتانا فى ليل متجمد موحش.

لبسوا عباءاتهم الكهنوتية السوداء... تُشبه تلك التى يرتديها القساوسة عند دفن الموتى، مطرزة من الخلف، وعليها أحرف كبيرة من خيوط الفضة، ونجوم سداسية، ثم وضعوا الأقنعة، عدا الكاهن الأكبر. أقنعة الفتيات حمراء. لا يقطع الصمت إلا وقع الأقدام، كالحفيف فوق الأرض الجليدية، أو خشخشة الحصَى بين الثلوج. القليل جدا من شواهد القبور. مقابر الفلاحين ثقيلة صارمة. كتل صلدة، متوارية، مثل الأشباح المترصِّدة. الصلبان متكسرة، تصنع

أشكالا غريبة معتمة فوق خلفية ناعمة من سواد الليل. لا قمر.. لا شيء سوى بصيص ضعيف من ضوء خافت هابط من السماء، يلامس بلطف زخارف المقابر الفضية. جَلَبة مكتومة من وقع الأقدام، وحَفْد (إسراع) تلك الأطياف المعتمة المتحركة التى تُسرع الخطَى فى صمت...

بسطوا ملاءة سوداء، مطبوع عليها أسماء الآلهة الملعونة، فغطتْ شواهد القبور الهيكلية الثلاثة، ثم أشعلوا شموعا تلوى لهبها المخيف فى مسرى الريح. وبعد ذلك، وضعوا الكأس وفيها قربان الدم فوق الملاءة المبسوطة، والنجمة الشيطانية، والسيفين والخنجر، وقدحًا أفرغوا فيه شذرات من عظام آدمية، وبخور. وعقب ذلك.. وبطرف سيف، خط الكاهن الأكبر دائرة كبيرة أمام القبور أحاطت بمكانه، حيث يُجرى الطقوس، وبفتاة تضع القناع.

ثم علا صوت الكاهن الأكبر فى أول استدعاء بالنداء على الآلهة الأربعة الملعونة: إبليس أجمل الملائكة، لفياثان إله الإنماء الجنسى للرجال، الشيطان حامل السيف، بِلْيال، ذلك الذى سوف يأتى..

كنت - أنا - باردا مشدودا، مثل حبل يتدلى فى بئر، إزاء تلك الشعوذة الخرقاء. تجمدتْ أطرافى. تحسست زجاجة الخمر التى دسستها فى جيب معطفى مزدوج الحاشية، وقلت فى نفسى: على أيه حال، لا تخلو الأرض من حمقى مختلى العقل فى فرنسا، كما فى أفغانستان.. وروسيا..

«يا بيضة الثعبان.. نينَوَى[1].. آه يا نينوى.. أدونای[2] يا أودنای.. سخْمتى.. يا سخمتى..[3].. إلخ، ثم يزعق مناديا القمر الغائب، ويصيح هذا الشارلو[4] الكبير المنتصب

(١) مدينة فى آسيا القديمة، عاصمة الأشوريين، على نهر دجلة، وبلغت أوج مجدها وازدهارها حوالى عام ٧٠٠ ق.م، ثم دمرت عام ٦١٢ق.م، وبدأ الكشف عن آثارها عام ١٨٤٧.

(٢) اسم الإله عند اليهود.

(٣) اسم التاج المزدوج للملوك الفراعنة المصريين القدماء. يقول د. ثروت عكاشة فى موسوعته القيمة «العين تسمع، والأذن ترى»: ولم يكن التاج مجرد حلية أو رمز للمنصب الملكى، بل فى زعمهم كائنا وإلها حيا حقا، يصور الحكم الفعلى، ويمنح الملكية لحامله.. جـ١ / ٢٧٤.

(٤) تشبيها بالممثل الشهير الهزلى شارلى شابلن

أمامى، بينما أنا ـ يا للعنة ـ أتجمد من أجلهم فى تلك الدعارة بالجبانة الضائعة.

والآن، أخذ أدعياء الشجاعة هؤلاء ـ وأُقسم لكم ـ فى استحضار من يسمونهم آلهة الموت الأربعة، وها أنا أكشف لكم عن أسمائهم التى منحوها ـ تشريفا ـ لهم: أوسوىْ/ أوليرُوس/ زيزيس/ أوليرو، ثم أخذ الرئيس الشارلوتى بمساعدة الفتاة الملتصقة به، فى خلْط شذرات العظام بالبخور وإشعالها، بينما يَعوى بقية أفراد الجماعة بصيحات: «إنهم سبعة.. إنهم سبعة.. سَحَرة القوة القادرة الرهيبة، التعويذة السحرية الأقدم من حوائط مدينة بابل المحطَّمة، قبل أن تطرق نينوى أحلام الخيال....» إلخ. وكل هذا مدون فى كتيب من القرن الخامس عشر، وأُقسم لكم، بيد «المجوسى أَبْرا مالان».

وأشياء أخرى...

وبعد التدخين، والتطهير، ومع تراتيلهم الفظة المفعمة بالبذاءة المكشوفة والسباب، دفعوا الدجاجة المسكينة بعنف، كما لو كانت ضفدعا، أو سحلية. ماتت الدجاجة من الصقيع، ومن الرعب.

أمسك الشارلو الكبير بالدجاجة بقبضتيه المغطاتين بقفاز أسود، ثم رفعها إلى السماء، وقذفها إلى الليل، فوق القبور والصلبان.

وماذا بعد...؟.

وبعد، أنا الذى أرتعد من البرد، والفزع. ليس البرد، بل التجمد. ولا الفزع، بل الهَلع.. والقرف من هذا الموعد مع جمال الليل، واللعنة، والشذوذ، والجنون الطائش.

تسمرْتُ فى مكانى. حملْقتُ فى كل شىء.. كل شىء، عدا الملائكة ذات الأجنحة الثقيلة الوهمية المحلِّقة فوق القبور المهجورة.

صرخ الكاهن الأكبر: «أيها السيد..! يا سيدى المعظم، أنت تريد الدم،

وتجلب الرهبة إلى الكائن الفانى. تقبَّل هذا الدم من جديد، فإنه يمنح الحياة..!»، ثم مسح شفتيه بالدم، وقال: «تعالوا واشربوا. تعالوا وتذوقوا الحياة من وراء الموت، لأن الموت يحرر الحياة..».

ارتعشتْ الوجوه وهى تنحنى نحو الدم، لامعة باقترابها من الشموع الموقَدة.. وعواء الكلاب يقترب من بعيد. عقب الشراب، ترنحت إحدى الحسناوات المقنَّعات. تقيأت. احتضنها أحد المساعدين، وأدخلها فى ملحفة الدفن التى يتدثَّر بها. اختفيا فى السواد، وفى الظلام. إنه الجنون والطيش، والجمال. الجمال الذى يغتصبه الحُمْق المنتشى، وأنا شاهد عليه.

انتهى الأمر. رتبوا فى الحقيبة أدوات الطقوس. استرحْت من «شهود إبليس»، لكن قبل انصرافى سألت:

ـ أهذا.. تفعلونه كثيرا؟.

ـ مرة كل شهر.. تقريبا.

أسرعتُ كى أنصرف وحدى، عائدا إلى باريس. انطلقتُ بسيارتى أولا، وضغطت على مفتاح تشغيل التدفئة.

# غالب ومغلوب

هذه حكاية طريفة، تُرْوَى كأنها حقيقة، ولمن يسمعها الخيار: أن يحسبها واقعا، أم من نسج الخيال.

عقب توقيع معاهدة إنهاء الحرب مع اليابان (١٩٤٥) فى شكل من المراسم مبتذَل مهين على السفينة المدرعة «ميسورى»، وبحضور الجنرال الأمريكى المنتصر «ماك آرثر».. قيل لليابانيين: من الآن فصاعدا.. ليس لكم الحق مطلقا فى صنع أسلحة حربية.

فسأل أميرال[1] يابانى مهزوم:

ـ وماذا يمكن أن نصنع بدلا من الأسلحة الحربية؟

أجاب أحد مستشارى الجنرال «ماك آرثر» بعد لحظات من التفكير:

ـ حسنا.. لماذا لا تصنعون سيارات؟.

ـ سيارات؟!، لكن الأمريكان يصنعون بالفعل سيارات.. فكيف يأمل بلد فقير مهزوم مثل اليابان أن يدخل فى منافسة مع سياراتكم الفاخرة؟.

ـ من الطبيعى أنكم لن تستطيعوا منافسة الولايات المتحدة، لأن الأمريكيين لن يشتروا مطلقا سيارات يابانية بعد الذى فعلتموه فى «بيرل هاربور»[2]، لكن من المحتمل أن تصنعوا شيئا يجد من يشتريه فى جنوب شرق آسيا، وفى أسواق أخرى لا يهتم الناس فيها بالجودة.

---

(١) رتبة بحرية رفيعة المستوى بمعنى «أمير البحر»، وهى من أصل عربى، يوم كانت للعرب سيادة على البحار.

(٢) أثناء الحرب حطم الانتحاريون اليابانيون الأسطول الأمريكى الرابض فى هذا الميناء.



obeikandl.com

- هذا عظيم!، ولكن كيف يصنع المرء سيارة؟.

- إن هذا يبدو حقا أمرا صعبا، لكنى على يقين من أنكم سوف تتوصلون يوما إلى إنجازه..

خُذ: هذا كتاب مرجعى، فيه كل البيانات عن مراحل صناعة السيارة. انظر: ما عليكم إلا أن تضعوا المحرك هنا، والمقاعد هنا فى الأمام، وفى الخلف، ثم تغلفون ذلك كله بالهيكل المعدنى، ثم ترشون الدهان بلون جميل، فتصير لديكم سيارة.

ويمضى عام، فتخرج أول سيارة يابانية من خط الإنتاج، فيسرع الأميرال اليابانى - وقد أصبح الآن على رأس مؤسسة «توجو للسيارات» - إلى المستشار الأمريكى، ليطلعه عليها، يقول خافضا رأسه فى انحناءة كبيرة:

- أرجو المعذرة، إذ أقدم لك هذا الشىء من صنع بلدى، وقد تجرأنا وسميناه سيارة، ولكن هو ما قدرنا عليه بإمكانياتنا المحدودة.

ربَت المستشار برفق على كتف الأميرال، وقال فى زهو:

- لا داعى للاعتذار، فقد أحسنتم تدبير الأمر، وتجاوزتم العقبات جيدا، وتلك هى النتيجة بالمتاح بين أيديكم، وبالمناسبة.. سوف أخبرك بما سأفعله: سأحضر بعض أولادنا من ديترويت (مركز صناعة السيارات فى أمريكا)، لكى يضعوا لكم قائمة بما يلزمكم أن تفعلوه لإنتاج سيارة مناسبة.

-ولسوف نرسل أيضا بعض المصممين عندكم والمهندسين إلى الولايات المتحدة، لعلهم يستطيعون معرفة كيفية الصناعة الأمريكية.

- رائع!.. تفعلون ذلك من أجل شركة سيارات يابانية صغيرة فقيرة تجهل سر الصناعة؟.

- ولم لا؟، فهذا هو السبيل الوحيد لإتاحة فرصة لكم، ولو ضئيلة، لكى تتمكنوا يوما من بيع «عربات زق» فى الولايات المتحدة.. ربما.

وتمضى أعوام.. يلتقى مستشار الجنرال ماك آرثر، وقد أصبح الآن فى منصب كبير بأحد البنوك فى نيويورك الضخمة.. يلتقى مصادفة بالأميرال السابق فى بهو فندق «والدورف استوريا» أشهر فنادق المدينة الأمريكية، وقد صاح فى دهشة مرحبا:

ـ أى رياح طيبة حملتْكَ إلى نيويورك؟.

ـ جئت لتنظيم حملة دعائية فى كل أمريكا لتوزيع سيارتنا الجديدة «كاميكاز ٢×٣»[1]، ذات الأربعة سلندرات، تستهلك ستة لترات من البنزين فى المائة كيلو متر، ونظام الجر فيها أمامى، والفرامل أسطوانية، وبها جهاز الكترونى لإزالة الجليد إذا تراكم على الزجاج الخلفى شتاء. تفضل، هذه صورة لها.

تأمل الأمريكى الصورة جيدا، ثم هز رأسه قائلا:

ـ إنكم تضيعون وقتكم، فالأمريكان لن يشتروا مطلقا سيارة صغيرة، خاصة إذا كان نظام الجر فيها أماميًّا.

ـ هل تظن ذلك؟!، لكننا لن نطمع فى أكثر من ١٪ من سوق السيارات عندكم: للشباب والطلبة.

ـ مستحيل.. فنحن فى هذا البلد نحب السيارات الفارهة، التى بها واقى الصدمات البراق، والحلْيات المعدنية اللامعة بوفرة.. واسمع نصيحة صديق: لا تُصروا على ذلك، ووفروا جهودكم. حاولوا أن تبيعوا إنتاجكم للعالم الثالث.. فالناس هناك يركبون أى شىء.. حتى الجمال والحمير.

فى عام ١٩٩٠..

أدركت الشيخوخة بوضوح كلا من المستشار الأمريكى، والأميرال السابق. وعندما دخل الأمريكى المكتب الفاخر الذى يجلس فيه الأميرال السابق، نهض اليابانى مرحبا بانحناءة وتبجيل:

(١) كاميكاز: كلمة يابانية تدل على فلسفة قديمة متوارثة عندهم بمعنى: القتال حتى الموت، أو الهجوم الانتحارى، فإما الغلبة، أو الهلاك.

- يا هلا.. أى رياح طيبة حملتْك إلى طوكيو أيها الصديق؟.

- لقد أرسلنى الرئيس الأمريكى، فهو يعرف علاقتى الودية معك منذ زمن بعيد، مقدرا معنى الرسالة التى حمَّلنيها إليك شخصيا..

- أية رسالة؟..

- يرجو أن تخفضوا من إنتاج السيارات اليابانية اللعينة..

- ولكن إذا لم ننتج المزيد والمزيد من السيارات، فماذا نصنع غيرها؟.

- إنه يريدكم أن تصنعوا أسلحة.

- لكننا لا نعرف كيف نصنع الأسلحة..!.

- لقد طلب منى الرئيس أن أسلمكم هذا.

- وما هو يا ترى؟!.

- كتاب مرجعى، يحوى كل ما يتعلق بصناعة الأسلحة..!!.

obeikandl.com